نوبة وجودية

دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان : مدينة العبور - الحي السادس فيلا ٨ مدخل ١

هاتف : 010003288596

بريد إلكتروني : Dream.pen92@gmail.com@yahoo.com

نوبة وجودية

آراس حمي

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠١٩م

غلاف : عمار جمال العبد

تصميم فني : الديوان للتصميم وخدمات النشر

رقم الإيداع : ؟؟؟؟ / 2019

I.S.B.N: 978-977-488-???-4

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار

نوبة وجودية

رواية

آراس حمي

DREAM PEN
FOR TRANSLATION & PUBLISHING
AND DISTRIBUTION

عطسة قانونية

إنّها السـاعة الرابعة و عشـرون سـيجارة ولم يأتي هذا الملاك الطيب اللطيف الجميل، و قد مضت ثلاث ساعات علـى رحيلـه وهنا أقول بسـخط أنّ الزمن لشـيءٌ مزعج و مضجـر، فهـذه الثلاث سـاعات لم تكن تـدل البتّة على ذلك فأنا أصرّ على أنّ كل ثانية هي ساعة أو أكثر قليلاً كـي أكون دقيقاً و غير مبالغ في التعبير عن اعتقادي، كما أنّني لست متطرفاً أو متشدداً باعتقادي حين أقول و أصرّ أنّ كل ثانية هي ساعة لأنّها فعلا كذلك، فالزمن كما أدركه الآن، طويل حاد جداً في منظومتي الحسيّة و كمـا هو واضح جـداً أنّه لإطار مطاطيّ حول رؤيتي، و لكـن فلنعـد إلى الواقع قليـلاً دونما تفلسـف فهذا الذي أدعوه "ملاكا" هو فعلاً ملاك بنظري ولا أقول ذلك على أنّـه غيـر مادي و حسـي و بشـري بل ألفـظ كلمة ملاك تعبيـراً عن وجوده في كينونتي، فهـذا الطيّب قد مضى على رحيله ساعات طويلة، لهذا كلّما مرّت ثانية (ساعة) يجبرني الواقع على أن أراه كذلك بل أنا مجبر على حبه كالعبـد، لا بل أنا عبد، عبـدٌ للانتظار، عليّ و بكامل

إرادتـي المصطنعة أن أنتظره عبداً ذليلاً مهاناً ، ثم فلنرى لما عليّ ذلك؟

هـذا المعلّـم الجميـل الطيـب الحقير اللاأعـرف ماذا أقول عنه أيضا ، سـيعطيني مـالاً تافهاً و هذا المال الذي سأستلمه لن ينفعني في شيء فهو ذاهب فوراً إلى صاحب البيـت و أصحـاب الديـون الّذيـن أتديّن منهم مـا آكله و أشـربه و لصديقـي الذي أخـذت منه مـالاً لأدخّن، لأقنع نفسـي بأنـي أتمـرّد علـى كل سـيئات الحيـاة، أي أنّني مجبـر علـى الانتظار كي آكل و أشـرب و أدخّن، لا بل أنا مجبر بكامل مسـوخيتي أن أعيش للأكل و الشـرب فقط لا أن أشـرب و آكل لأعيش، فالحياة هي كذلك، عندي..

يكفـي، فلننتظر هذا الملاك تعبيـراً عن عدم وجود احتمـالات أخـرى فـي هـذه الطريق التـي تُسـيّرك دونما إرادة، كمـا تريـد هـي، بـل ترسـم لك مخطّـط حياتك مـن الطفولـة إلى الشـيخوخة، كل أحلامـك و أوهامك و رغباتـك و مشـاعرك، حتى عصبيتك لا تهـزّ الطريق و كأنّه تـمّ أخـذ كل الإجراءات لهـا ، كقوقعة لن تخرج منهـا رغـم معرفتـك بضـرورة الخـروج، ولكـن هـل أنا الوحيـد العارف بذلك أم أنّ الجميع في داخلهم يشـعرون

بالسخط الذي يتحوّل تدريجياً إلى حالة عادية تمر مرور الكرام كسيرورة حتمية.

وصل المدير داخلاً من الباب ليترك الصمت يرتفع على النفوس الصاخبة، الكل تحرّك حركةً لاإرادية في مكانه دلالةً على وصوله، دلالة الخضوع و الكذب على الذات فلم تعد الأرض مكاناً يتم تبادل الصدق فيه، يتم تقدير التعبير الصادق و هذا تمرّد سلبي على القانون المنحاز، منحاز إلى شيء أو طرف أو رغبة، لم يتم معرفته و فكّ ألغازه بعد، كل الذين كانوا ساخطين و متذمرين في ردّات فعلهم عادوا بسطاء و دراويش، و كل من دخل إلى غرفة الحساب خرج مبتسماً و ما أن يلتفت إلى العمال الآخرين حتى يتظاهر بضعف الحاجة انضماماً إلى الحشود المنكسرة من التاريخ كحجة يعتبرها قوية لكسب المقدمة، أما الآخرون ينزعجون من تصرف الخارج من الغرفة و خاصةً ابتسامته الحقيرة و لكنّهم هم أيضاً يصبحون كذلك بعد الخروج، في الواقع أنا أشعر ب «جكرخون» أكثر من العمال الآخرين، حتى لو كان يبتسم فهو يبكي من داخله، هذا الفقير المذلول من الجميع خرج أيضاً كما الجميع، إنّنا في مدينة الابتسامة الكاذبة و المذنبة، إننا فرديون

جهـلاً و اجتماعيون عنفاً ، أطلقت زفيرا و أخذت حكماً أنّنـي لـن أخـرج مثلهم ، و أنّني مـا أن أدخل حتـى أتكلّم عن كل شيء ، سأقذف كرات الحقائق في وجه المدير و المحاسـب الغليظ ، ثم سـمعت اسـمي يحلـق ، فدخلت ماسكاً أعصابي

-ما هو رقمك؟

قال لي المحاسـب وهو يتفقد الأرقام و الحسـابات من حاسوبه

٤٠٠٠-

نطقت الرقم بنبرة حاولتْ إيصاله إلى الانزعاج و لكنّها خرجـت نبرة ضعف و حزن ، كان المحاسـب يدخّن وهو يحـرّك المال في يده ولم ينظر إلـيّ حتى ، كنت أرتجف كأنّني أسقط من أعلى برج و أعرف أنّني سأموت.

-هذا حسابه يا سيدي المدير

قـال المحاسـب للمديـر ليبـدأ هـو بحسـاب المبلـغ و وضعـه على الطاولة ، لم يمد يده إليّ حتى ، أخذت المبلغ و استدرت نحو الباب و فيّ رغبةٌ عارمة في الخروج بأسرع وقت.

- لا تتأخّـر غـداً فلدينـا عمـل يجـب إنهائه قبل السـابعة و

النصف مساءً.

نظرت إليه فوجدته مبتسماً ابتسامةً لا يمكنني الردّ عليها إلّا بابتسامة.

-حسناً سيدي

ثم خرجت ناسياً إصراري على قراري الذي عهدته على نفسي قبل الدخول، كل الوجوه كانت تنظر إليّ بانفعال قرفي، تظاهرت بل أخمدت الابتسامة و خرجت من الشركة.

* * *

في اليوم الثاني استيقظت من كابوس ثقيل على النفس، كدت أجن من هول المشاهد و رغم معرفتي بأنّه كان حلماً، مجرّد حلم، ولكنّني ظللت أشكّ في ذلك، لقد رأيتني أستيقظ صباحاً و أجد الجميع قد تحولوا إلى ضفادع، عائلتي و المدير و الجيران و كل من رأيتهم، حاولت جاهداً إخبارهم بذلك ولكنهم خالفوني، حتى ذهبت بأحد العابرين إلى المرآة ليرى جلده و أطرافه المنتفخة و لكن وهو ينظر إلى المرآة قال بيقين تام (ها أنت ترى أنني بشري و الآن اتركني أذهب إلى العمل)، لا يهم فهو ليس أكثر من كابوس غير واقعي النظر

فلألتفت الآن إلى كابوسي الواقعي، إنها الساعة الثامنة و علـيّ الذهـاب إلى العمـل، إلى تلك الشـركة الكئيبة المكتظّة بأنفـاس ذلك الثعبان (المدير) ولكنني أحتار دائماً بين أن أرى المدير هو المذنب أم العمال أو أن لا أرى أبـداً، ومـاذا أعني بالرؤية؟ أ هي حقاً لـي أم مجرّد توهم يحـدث لي مثلمـا يحدث للمدير و العمـال معاً، فليكن، إنّنـي الآن أمـام قضية شـخصية أكثر إذ أقول أو أسـمع أحدهـم مـن باطني يقول (مـاذا لو لم تذهـب؟!) حقاً إنها لفكرة لذيذة للغاية فبما أن العمل اليوم كثير و أنا لدي قضية إنسـانية فعلي الدفاع عن نفسـي بـأن لا أذهب إلى العمل، هكذا أنتقم منه شـر انتقام، بل أسحقه و أجعله يئـن و ينتحـب كـي أذهـب إلى العمـل، عدت إلـى النوم متلذذاً بنعمة السـرير الدافئ و لكنّني فتحت بصري قبل موعد العمـل بدقائق تكفي لأصل إليه كأنّ منبه ما قد رنّ فـي عقلـي، حاولت جاهـداً العودة إلى النوم ففشـلت فشلاً ساحقاً، و إذا بي أسمع صوت رنين الهاتف.

-لقد تأخّرت دقيقة تكفي لرؤيتك وقحاً..

-سيدي لا أستطيع المجيء اليوم

-ماذا تعني بذلك؟

- أنا مريض جداً، و أعتذر عن مرضي

أطلق زفيراً و شدّد من نبرته:

- كلنا مرضى و علينا أن نشفى بالعمل.

- ولكنّ مرضي يُشفى بالهدوء

-ها .. خذ الهدوء..

و أغلق في وجهي، وقعت في دوامة قلق جديدة (ماذا يعني بجملته الأخيرة؟) أسيفصلني عن العمل أم مجرد ردّة فعل، لا يهم حقاً، مضت دقائق و أنا متمسّك بالسرير لا أتحرك و لا أغلق بصري، رأيتني أقوم و ألبس ثيابي و أخرج راكضاً و أتصل بالمدير..

-سيدي أنا في الطريق و أعتذر عن ذلك أيضاً

-يااااه، حسناً حسناً .. فلتسرع

كل ذلك حدث دون أن أدري كيف، بعد المكالمة تماماً أبصرت ما فعلته، ألم تكن لديّ قضية فما أنا بفاعل!!؟

تنبّهت، غضبت، فتحت يديّ للشر كي تتوقف هذه المهزلة اللاإرادية و اتصلت مجدداً

-سيدي، سيدي أنا مجبر أن أخالف كلامي مجدداً إذ لديّ أصدقاء قد وصلوا من دولة ليذهبوا إلى أخرى وهم الآن هنا في المطار و عليّ مقابلتهم، هل عليّ الاعتذار؟

سـمعت صمتاً رهيباً ، صمتـاً لم أفهمه ، قد يكون من أعراض الصدمة عن تمردي أو تذمراً أو وعداً بالانتقام أو أنّ المديـر مات ، موتاً لا أشـك أنه انهيار مؤجل لحياتي و حيـاة كل العمال ، و رغم كل الاحتمالات المفتوحة ظلّ الصمـت رهيباً بغموضه ، ثقيلاً بلحظاته ، مزدوجاً بيني و بينه ، كشـقّ بين الوجود و المعرفة ، أقفلت المكالمة و عدت إلى البيت.

دخلت ، عانقت السـرير محـاولاً النوم و إذا بالهواجس تعـوي مـن كل الجهـات فـي رأسـي ، قلـق ، قلـق ثقيل ، المكان يحاول طردي منه بصخبه السيكولوجي ، حتى هو صـار عدواً لـلإرادة ، تلك الإرادة التي نتشـبث بأملها فـي المسـتقبل ، ولكن هـذا لا يعنى أنّنا لسـنا آلات في الحاضـر ، نعمـل كالآلات لنصـل إلى رغبـات آلية و من دوافـع آليـة ، و علـى ذلك بتنا نأكل و نشـرب كي نفعل ذلك ، مشـتركين في طعن الـذوق ، رافعين الصوت فوق الفـن و نعمـه ، فـوق هـذا الضـوء الداخلي الـذي يصارع التاريـخ الديناميكـي لوحـده ، منذ أول رؤيـة للفكرة ، منـذ التصور البدائي ، أ أقول أنّنـا نرضخ أكثر للقوانين و القيـود؟ ربما ، أعني أين نحـن أكثر من أين كنّا ، من نحـن أكثر ممن كنّا ، و هل يجـب جمع كل الأحكام

لنطلق سؤالاً في الحاضر أم الابتعاد عن الأحكام لفرض سؤال أوليّ جديد، بكل جدية أحاول التهرب من روح التفاهة المصنوعة يدوياً لسلب السؤال من كل فرد، عائداً إلى فرديتي لأتذاوت تمرداً، يعني سأنام الآن نوماً رائعاً هادئاً، كما أتخيله مستحضرا مبدأ امتلاك الوقت فهذا ما نحاول الفوز به، ولكن هيهات، ما أن نمت قليلاً حتى رأيت عقرباً يمشي على صدري ثم يقصد عنقي و يتمركز على أحد أطرافه، من حسن الحظ كان حلماً و من سوء الحظ كان كذلك، بعدها حاولت جاهداً أن أنام و لكن الفشل تربّص بي كلعنة أبدية، قمت أحاول قراءة كتاب ما، نظرت إلى المكتبة فوجدت أن قصة (حلم رجل مضحك) تشدّني نحوي فلربما تفسّر كيف يمكن أن تكون مضحكاً من الخارج و مفجعاً من الداخل، كيف تبحث عن تلك الجنة ثم تهلكها و أنت كنت الخير ضدّ الشر، فما الخير إذا لم ترى الشر و ما الشر إذا لم تقم به، إنّ الموعظة لم تعد ذات قوة كالسابق فلقد قتلنا الخير الذي وصل إلينا من الماضي و سنقتل الخير الذي سنورثه إلى المستقبل، لا الخير في ذاته، إنما ما ندّعيه و نعظه لغيرنا.

بعد قلب بعض الصفحات شعرت بسوء، بضيق و بثقل

مهول على نفسي، كفأرٍ اعتاد أن يكون في المستنقع، و إذا بي أركض نحو العمل دون تخطيط عقلي جيد، وصلت، دخلت، نظرت إلى الجميع، كانوا يعملون، قلت في نفسي إنها اللحظة الحاسمة، عليّ أن أغير التاريخ، بل أدمّره، عليّ أن أغيّر شيئاً لا ينفكّ عن خنقي، كسلسال كلب، و إذا بي أصرخ

-أيها الرائعون، يا أصحاب النشوة و اللذة و الغريزة، يا أصحاب العمل و الخطة و الهدف، يا أصحاب الزمن و المكان، الأمس و الغد، الليل و الصباح، اللسان و العقل و الحكم، إنني هاهنا..

(و هنا خرج المدير و المحاسب من المكتب باحثين عن مصدر الصوت أو الضجة)

و قد تمرّدت على أن أكون مقيداً، على أن أكون عبداً، على أن أكون لغيري، لشيء ما أعلى من غيري، و قد عدت أخبركم أنني تركت العمل فلتتركوا أنتم أيضاً و لنعش بعض الوقت و نفنى بإرادة، بمحاولة انقلاب على الأكيد، و إن لم تفعلوا ذلك فلا يسعني إلا أن أقول أن معاطفكم تثير كراهيتي، تثير النفور الأعلى، معاطفكم ستكون أسياد الحكم إذا خرجتم الآن، و أنت أيها المدير، المسيّر من مديرٍ و مديرٍ و مديرٍ،

إنّني ألعن السلالة، ألعن هذه الجنة الجحيميّة، وألعنك لعنةً أبدية أشارك فيها محاسبك الغليظ، وشكرا لاستماعكم يا سادة.

في ذهولٍ عارم، في صمتٍ عارم، و إذا بي أتحسّس الدم خلف رأسي، سقطت أرضاً، رأيت رجلاً خلفي، هو جكرخون.

* * *

البزق

اقترب زوزان من الشارع المفضي إلى متجر الآلات الموسيقية، برهبة من القادم، برهبة تكاد تشوش ملامح العالم في داخله، كما لم يكن يمتلك رغبة تامة للمضي على طريق قراره، لكن استمر في المشي دون أن يضع حداً لتلك الرغبة، وقف باتجاه المتجر وقفةً غير مستقيمة، ضعيفة، متكأً على العامود الذي كان بجانبه، و في لحظة انفعال قال لنفسه (فليكن)، ثم قصد المتجر وهو يمشي ضرباً على الأرض، دخل و مع دخوله بدأت اثار الانفعال يتلاشى من داخله

-صباح الخير

نظر إليه صاحب المتجر نظرةً متأكدةً من تنبؤها

-رجل آخر يرغب ببيع آلته

اخرج زوزان البزق من بيته الموسيقي و قال بصوتٍ مرتجف

-هذا البزق يرغب بالابتعاد عني

اقترب منه صاحب المتجر

-ما اسمك؟

-زوزان

-اسمك غريب إذ لم اسمع بهكذا اسماء من قبل!

-هو اسم إذا سمعت به أم لم تسمع به

-لكنني ببساطة لم اسمع به

قال ذلك وهو يترجم سخريته إلى لغة و حركات جسدية

- و هذا لا يعني أنه لا يمتلك صوتاً!!

قال ذلك متفاخراً باسمه

-حسناً، حسناً هات ما عندك

وضع زوزان آلته على الطاولة، نظر إليه صاحب المتجر بعجرفة و قال متهكماً ساخراً

-ما هذا يا رجل، من أين أتيت بهذه الجثة؟

شعر زوزان بالإهانة و إذا به يرفع صوته بقسوة

-من قلبي، من بيتي، مني

أحس صاحب المتجر أن الحديث سيتجه إلى غير ما يريده فعاد يحاول التظاهر بالاهتمام

-هل له صوت؟

اخفض زوزان صوته بقليل من التواضع

-نعم، يمكن سماعه من داخل الغرفة شرط إقفال الأبواب، و له صوتٌ جميل

- ما قيمته إذا لم يسمع من الخارج؟

-الصوت الذي يسمع من الخارج ليس تماما كما في الداخل، و الخارج إذا كان مفتوحاً كثيراً ستتلاشى قوة الصوت

-إن حججك ضعيفة، كل الآلات في يومنا تسمع من الخارج، هذا عن الصوت فما بالك بالشكل؟!، أنظر إنه قديم جداً، فلو وضته بين الآلات فستكون الصورة الكاملة غير عصرية و متناسقة

-ها أنت تقول إنه متميز بشكله عن باقي الآلات

-بل أقول إنه زائد عن الحاجة ولا له قيمة

وقف زوزان و النار يلتهب في داخله

-كفاك تفاهةً، هذه الآلة لها قيمة لكنك لا تدركها، فلو لم أكن بحاجة إلى المال لما بعته

فكر صاحب المتجر قليلاً ثم قال لنفسه (ساشتريه و أكسره أمامه)

-عليك بالهدوء فلنصل إلى نتيجة

-سأبيعه بخمسين دولاراً

-لكن هذا كثير يا زوزان!

أسرع زوزان يضع البزق في مكانه وهو يشعر بالسعادة و إذا بصاحب المتجر ينطق بصوتٍ خافت

-لا تتعجل، ساشتريه

تفاجئ من ذلك ثم نظر ملياً في ملامح صاحب المتجر، و إذا به في لحظةٍ لا تفسر يرفع البزق عالياً و يرميه على الأرض

-لم فعلت ذلك، كنت ساشتريه منك !

-غيرت قراري

-الآن؟

-سأخلق بزقاً جديداً و بيداي هاتين

* * *

نوبة وجودية

مبللون نحن، أنا وهي و كل أشباهنا التي نخفيها في كياننا، فاليوم كما عادته يصاحبه مطرٌ خفيف، يبلّل ثيابنا، جسدينا، ملامحنا الطفولية، عمرنا، حتى إنّه يبلّل قلبنا الذي كان صافياً في الهدوء.

أشدّ يدها و ندخل الباص بكلّنا، ثم نلتفّ حول بعضنا في إحدى زواياه، فلنا خصوصيتنا حتّى في الزحام، كما إنّنا في الزحام نزدحم بالمشاعر الهادئة، و نُخفي تحت تلك المشاعر شعور الخوف الذي لا ينفكّ يمتزج بنا، ولربما هو من يزدحم بأقنعته الجديدة، و لكنّنا في سباتنا النقيّ نتعانق و نمتزج كالمادة و الماهية، أخبرها في أذنها بعد أن أسكب جرعةً من رائحتها في جوفي

(إنّني الآن أتمرد على كل شيء، فيا حبيبتي من الصعب أن نكون واعين في الباص)،

تقول لي (لم؟)

أرد عليها (لأن الباص مجازٌ ثقيل)

لم تفهمني و عدنا نكمل سيرة العناق، ولكنّ الزمن

في مثل هذه اللحظات يغدو نسبيّا جدّا إذ هو يلهث بكل صلابته من الوعي، و إذا بنا نصل و ها نحن نكمل المشوار بكل ساعاته و أحاديثه و أحداثه، وها نحن مجدّداً نجلس على إحدى الكراسي ننتظر الباص.

كنّا نضحك حينها، من كل شيء، حتى من أنفسنا كنا نضحك، كنت كما المجنون بين الدقيقة و الأخرى أقترب منها و أشمّ رائحة عنقها الطيّب، ما شبعت أبداً و ما كانت هي تنتهي أبدا، أخبرتها بكل عفوية

(ما أن نصل إلى البيت سألتهمك)

قالت لي مباغتة

(لا لن يحدث ذلك، ابتعد عني)

ها هنا نبدأ القصة، أو هي التي تبدأ بالتماهي بنا، من خلالنا نحن المقيّدين بالمادة، فكل قصة لا تُسرد إلا لذاتها و نحن مجرّد أساليب وُجدت لتكون وسائل نقل، كما هو ظاهرٌ في هذه البقعة الجغرافية الصغيرة من الأرض أنّني بكل أكواني أتبعثر في دهاليز المعنى، كنت كالأرض التي غرز الشتاء أنيابه فيها، كنت الحقل المقبل على الجفاف، و صرت جفافاً، أو أكثر بقليل، فأنا غرّدت بعيداً وهي سمعت صدى ليس لي فيه

أيّ حس. أنا كنت أرغب، بل أتهيّج لأحضنها في البيت حضناً أوسع من الطبيعة، وهي ظنّت أنّني أرغب في ممارسة الغريزة، آه، كم درجة أخذت أبتعد عني، عن الهدوء الذي يتجلّى في الذات، صرت آخري، هكذا في ثواني، أو أقل من ثواني، نظرت حولي فأبصرت المكان وهو يغيّر جلده، رأيت الأبنية تذوب و الشوارع تضيق و الأشجار خريف و البشر دمًى مبرمجة من المادة. كنّا جالسين في صمتنا، هي لا أعلم بماذا تفكر و أنا أسمع صوت الانفجار من داخلي و لكنّني رغم ذلك لم أشعرها بأي شيء، ولا تركتها تسمع ما يجري بداخلي، و عدنا نكمل الضحك الّذي صار كاذباً، هي تدرك الكذب الذي يتلألأ في الضحكة و أنا أيضاً أدركه و رغم ذلك نظلّ نضحك و كما أنّ تلك النقطة التي غيّرتني لم أوضح لها معنى جملتي و أكملت معها اعتقادها الخاطئ عن المعنى الكامن في تلافيف النبرة و الكلمة. لم نجلس كثيراً، وصل الباص سريعاً، أخذنا مكاناً أيضاً ولكن هذه المرة بيننا ما يقارب ربع متر، ربما بيننا مليون سنة ضوئية، لا بالشعور إنما بالاعتقاد.

تقدّم بنا الباص بضع أمتار ثم دخل في زحام لا أول له ولا آخر، ولسوء حظنا نحن المجازيون، نظلّ واقفين في

كل شيء، لم يكن في الباص أيّ كرسي فارغ، ظللنا واقفين على أنفسنا، على عمرنا الذي يُسكَب في وعاء الوجود، في هنيهةٍ تكاد تكون معدومة نسبةً للزمن الكليّ للوجود، كنت في هذه الأوقات العصيبة أريد أن أنسى مجازي الذي أخذته على عاتق المعنى لكلمة "باص"، دخلت الخيال لأكوّن أي مشهدٍ آخر بعيدا عن الحاضر، هكذا دون أي تخطيط أو دراسة أو رغبة رأيت فجأةً بعض الشفرات تخرج من تحت جلد معصمي، فوق كفي تحديداً، و شفرة لم تخرج، تمرّدتْ حتى وصلتْ إلى كتفي و لكنّني أخرجتها بعد جهد، لم يكن المشهد إلا مجازا آخر، ولأنّي أعرف أنّني لا أستطيع التصنّع في ذاتي كي أكذب على ذاتي، استسلمت للحاضر و عدت بخيالي إلى الباص الباكي في الزحام. كانا حلقي و فمي يجفان ببطء كما كان صدري يزداد إنكماشا، قالت لي صديقتي بإحساسها المرهف

-ما بك؟

-لا شيء، فقط أنا أرى كل شيء بوضوح

-ماذا تعني بكل شيء؟

ملامحي كانت تنقبض في كفّ الضعف و قدماي بدأتا تختلّان قليلاً، عدت أقول لها بعد لحظات سريعة:

- أنا أرى أنّني موجود ، أي من الوجود ، من المادة.

لـم تفهمنـي أيضـا و تركتها لأعـود إليّ، إلـى الباص الخانـق المزدحـم بكائنـات لا أحد يشـعر منهـا بغيره، كلنـا أبناء الغريزة و المادة، أبناء هـذه المادة الحرّة من الخيار اللامرئي، المسـجونة في الاختيار، المادة التي لا تعنـي أيّ شـيء، ولا لهـا أيّ معنى، الوجود الـذي أطلقنا و سـيأخذنا كالأسـرى، و نعتقد أنّنا أحـرار، متوهمون نحـن، أنّ البـاص، هـذا البـاص تحديـداً (46K) هـو المجـاز الحقيقي للوجود ، هو كما هو، يخنق من يدرك وجـوده، و يترك الكائن مسـلوب العقل متلـذذاً بوهمه، يشـتدّ أكثر بسـطوته و عنفه حينما يدخـل في الزحام، أي أنّـه يخبرنـا دون أن يتكلم أننا لـو تحرّرنا من الوجود فسـندخل في سـياق وجود آخر و هكذا إلى ما لا نهاية، هكذا بدأت شذرات الكآبة تعصف بكياني، قالت لي صديقتي مجدداً

-ما بك؟

-لا شيء، مجرد نوبة وجودية..

و عدنـا صامتين نرى الكون مـن الخارج، كما هو، خالياً من الحس، من اللغز، من الحيرة، ولكنه مكتظٌ بالقلق و العجز، و مفرط في العدم، منفلتٌ عن تكويننا

لـه ، عـن أن نختار لـه ماهية يلبسـها و يتزيّن بهـا ، ماهية تكـون يقينيّة إلـى الأبد ، و يا ليتها كذلـك ، نحن نريد ماهيـة لا يمزقهـا الشـكّ أبـداً و في الوقت نفسـه تكون ماهيـة عاقلـة ندركهـا بوعينـا المطلق، ولكـن هذا لا يحدث، المعجزة فجوة في العقل، هكذا أخبرنا الوجود بدلالاته.

وصلنـا إلـى البيـت بعد سـاعتين، خرجت مـن الباص لاهثا ، وقفت لدقائق أستردّ أنفاسي و طاقتي

قالت لي و هي تطبطب على قلبي

-ها قد خرجنا من الباص

-نعم خرجنا و لكن تركنا أشياءنا الواضحة فيه!

* * *

لا جديد

-ما هذا الذي انفجر في صدرك ؟

-لا شيء، بعض الأشياء المكتومة، ربما أكثر قليلاً

-إنه يشتعل، إنه يشتعل!!!، صدرك، هذا، دخان!! «

-لا تخف، بعض الضحكات تحترق، بعضها فقط

- ما هذا الصدر يا رجل؟، ماذا يوجد في داخله!؟

- يا صديقي، هذه الانفجارات و الحرائق عملية تخيلية للصدر، اللعب بالذكريات، أو يمكنك أن تسميها الحالة الحنينية

-ماذا تعني؟!

-هذا الصدر فيه فراغ، قليلاً، ربما كثيراً، لا، سأكون واضحاً معك، لا يوجد فيه شيء سوى الفراغ، فراغ موحش، فراغ مكتظ باللافراغ.

-ولكن، ولكن....، كيف تنبض ؟

-هه، ومن هذا الذي ينبض!

-و من هذا الذي لا ينبض؟

-إنه، أ أ أ.....، هو الذي عرف إنه لا ينبض، لم يكن

الموضوع قاسياً إلى هذه الدرجة، نهض يوماً ما من وهمه وعرف إنه لا ينبض، هكذا ببساطة قاتلة، بفاه فارغ.

-ماذا تعني بذلك؟

- لا شيء، لا شيء، فلتذهب إلى الجموع النابضة، هناك، ها هم ينتظرونك، فلتذهب.....

- و أنت، ماذا ستفعل؟

-ما أفعله كل يوم، سأحاول التلذذ بالفراغ

هذا ما كنت أقوله لنفسي و مع نفسي ثم حدث ما لم أتوقعه، هكذا، دونما إنذار، و المثير بحد ذاته أنّه حدث فيه من الغرابة ما يوصل الإنسان إلى الحيرة إذ أنّه يمتلك غموضاً شديد العتمة و هذا هو الذي يشدّ العقل ليتوغل فيه أكثر من أن يعتبره مجرد حدث عابر، و لكن من الجهة الأخرى أعود إلى ذاتي، أي أفكر فيَّ كذات، لربما تكون الأحداث هي مرايا للذوات، ربما، ها أنا أقول ربما إذ فيه حيرة و لكن لنرى ماذا حدث فقد يعتبر شيئاً تافهاً في نظركم، أو تافهاً في حقيقة الأمر، كنت كما كل يوم جالساً في الحديقة التي تحاول احتضاني بطبيعتها المصطنعة المبتذلة، تحاول أن تقنعني بأن الصدفة قد تقرّب شيئاً جديداً من حياتي،

يخيّل إليكم أنني مولع بالصدف، بل أنتشي حين تحدث صدفةً لم تكن في الحسبان، أي مفاجأة غير متوقعة بتاتاً، ولا يهم كيفما ستكون المفاجأة، حتى لو كان الموت قد بدأ يأكلني فهذا سيكون مثيراً بالنسبة لي إذ أنني و كما تفهمون من كلامي فارغ جداً، حياتي فارغة، نظرتي للحياة مفرطة في الفراغ، ذاك الفراغ الذي يشبع الذات و يجعله يتلذّذ بكونه لا يمتلك مسؤوليات و رغبات و أمنيات و أحكام و مفاهيم، حتى أنّ الحياة كحياة لم تعد تهمني إذ أنّني ببساطة فارغ حتى من الحياة، و لكن تحاول بعض الأحداث إرجاعنا إلى حضن الحياة بمؤثّراتها الغامضة، بأدواتها الشريرة، هي لا تريد إلّا أن نكون عبيدا في عرشها العنيف، كما حدث معي حين كنت جالساً شارداً في فراغي الهادئ مبتعداً عن العالم الخارجي بكل جماليته و قيمه و ماديته و شخصياته، و طبعاً كنت أدخن الهواء مباشرة من أنفي البسيط، ولم أتقيد يوماً بالزمن، فها أنا هذا اليوم أخرج من الحديقة و لا أعتقد أن الزمن كان طويلاً، خرجت ببطء شديد و عند ذاك الممر الذي أخرج و أدخل منه رأيت أو نظرت لا إرادياً إلى من كانت تدخل الحديقة، لا أستطيع التأكيد أنّني نظرت بشهوة ولا أنّ جسدي أجبرني على

ذلك، قد يكون محض شرود أو توسيع آفاق النظر كي لا أصطدم بأحد هؤلاد المشردين البؤساء، و في اللحظة التي رفعت فيها عينيّ و إذا بهما تلتقيان بعينيها، قد تكون هي أيضا نظرت للسبب ذاته، و هذا الحدث، لا أعتقد أنّه دام أكثر من لحظة، لحظة واحدة فقط، و بعدها تماماً، بعد خروجي و دخولها إلى الحديقة لهثت مسرعاً إلى البيت، بأقصى طاقة ممكنة، و كأن نوبة في داخلي انفجرت كالعاصفة، نوبة حياتية، أو نوبة غير فارغة، أو تمتلك شيئاً غير الفراغ، و لأنني أردتُ توضيح شيءٍ ما لذاتي، وجدت أول فكرة، تقول لي هذه الفكرة..... .....

فتحت الباب ذاهباً إلى القبو المكتظ بالأشياء القديمة، من بعض مقتنياتي الطفولية مع القليل مما تبقى من ثياب عائلتي الميتة، أدخلت رأسي في دهاليز الأشياء باحثاً عن شيء ما، و لا أعلم ما هو، كل ما هنالك أنّني أبحث لا أكثر ولا أقل، ولم تمض دقائق حتى وجدت مرآة كانت لأمي حين كانت حية تعرض جسدها لجسدها كلما أرادت الخروج للعالم، أخرجتها و ذهبت إلى غرفتي، ولكنني بقيت أراقب هندستها وهي ملفوفة بالورق، تأملتها وكلي شوق و نفور منها، شوق و نفور

معـاً ، أقبـل الليل و دقّت سـاعة الواحدة بدأ الشـوق يغلب النفور ، وقفت بكل ثقة شرعت أنزع الورق عن المرآة وأنا مغمض العينين كي لا أرى نفسـي إلا بعد أن أؤكد هذه الرغبـة في داخلي ، وفـي لحظة واحدة ، مباغتاً نفسـي ، حرّرت البصر ، رأيتني ، تأملتني ، فحصت التجاعيد وهي ترقص على وجهـي ، وملامحي الفارغة ، الباردة من كل المشاعر و الأفكار ، و الشعر الذي أخذ كل ما يمكنه مـن جلد وجهـي الملـون بالأصفر ، أو هو الصفـار عينه ، العيون الناعسة ، الشعر الطويل ، الذقن المهمل منذ ما لا أعرف ، شـيئاً فشيئا بدأت ألصق التفاصيل ببعضها لأرى مـن أصبحـت الآن ، من أنا بعد كل هـذا الفراغ اللذيذ ، ولكنّني للأسـف بعد ألف خيبة ووهـم و جدت أن وجهي لا يعبر إلا عن غرابة و دهشة مشهد نظري إلى وجهي ، لا أكثـر أبـداً ، و الآن ، في هذه اللحظة التـي أكتب فيها هذه القصة أقول و أفضح أمري ، أمر هذا الحدث ، إذ هو أيضاً مر ، دونما أثر ، هذا الحدث الذي اعتقدت أنّه يملك كل المقومات الأساسية ليغيّر شيئاً ما فيّ..

* * *

قبل الموت بقليل

تفتح البصيرة، تنظر حولك، تبقى مستلقيًا على السرير لخمس دقائق تستعيد فيها أحداث مشاهد الكابوس : خبزٌ ناضجٌ يخرج من الفرن ولا يكسر أسنانك الأمامية، تنهض و تمارس القليل من الحركات الرياضية و تسأل الجسم :أأنت جاهزٌ لتحمل فراغ اليوم، تقصد الحمام، تعطي الفراغ ما حملته من أشياء مذ البارحة، تخرج و تغسل يدك بالصابون، تغسل وجهك بماء الصباح، تعود لغرفتك و تفتح النافذة و تبتسم للشمس فتنادي العصافير: أين قهوتك، ولأنك كسول بعض الشيء، تذهب للمطبخ وتعد القهوة متكأً على خمولك، تعود بالكوب إلى غرفتك ثم تخفض أصوات ملائكة الصباح، تفتح التلفاز، تغيير القناة لأخرى، تصادفك قناة الأخبار تنظر لشريط الماشي على طرف ثوب التلفاز (عاجل:العالم يزداد فرحًا ورفاهيةً، تقول لنفسك بحيرة: أين هو الموت الأن، تفكر و تفكر و تفكر ويقطع تفكيرك رغبة الخروج و البحث عن الموت، تلبس جواربك، تدخل أزرار

قمصانك في ثقوبها ، ترش عنقك بعطرك المفضل ، تلبس حذاءك اللامع و تخرج ناسيًا إغلاق الباب ، تمشي قاصدًا ساحة الثرثارين ، ترى على طرفيك المحلات المتنوعة بين المطاعم الفاخرة و المكاتب الباهرة والأفران الساخنة والصالونات الفارهة ، تصل إلى الساحة فتقع عيناك على صديقٍ جالسٍ على مقعدك الخشبي المفضل فتقصده :صباح الخير صاح .يرد عليك بوجهه العبوس :أين الخير و نحن لم نجد الموت بعد ، فترد عليه :أصبر يا صديقي لربما سنجده عما قريب في مكانٍ و زمانٍ ما. تجلس بجانبه ، يبدأ بحديثٍ مبعثر فتدرك إنه قد تعب من الفراغ فتقطع حديثه :هيا بنا يا صاح سمعت ببناية جديدة لم تضع الدولة شباكًا تحتها ، يقفز فرحًا و يمسك يدك ويلحن جملته القديمة : هي بنا نموت ....لقد تعبنا من الرفاهية... لقد هرمنا من الفرح.

تركضان و تركضان صوب بناية الموت بفرح ، تصلان و تجدان البناية مكتوبٌ عليها :كل قفزة بحلم جديد ، فيعبس صديقك ويقول : لقد حققت كل الأحلام فمن أين أجلب حلمًا جديدًا ، فتصلك فكرة ذكية ، تمسك يد صديقك وتدخل البناية فتجدها خالية إلا من

مندوب شركة الموت.

يسألك عن حلمك و عن حلم صديقك، ترد بثقة كبيرة كذبتك الطازجة :أنا وصديقي نحلم بالحياة و نريد تحقيقه، يقول لك :أسمعت بالأرض؟، فتنفي ذلك بهز رأسك، يرد عليك :جهزا نفسيكما للرحيل إلى الأرض، فتفرح و تفرح و تفرح، ثم تجد صديقك يسقط، فتحبس أنفاسك و تقول أنا أيضًا جاهز فتسقط أنت أيضاً في غيبوبة الرحيل، تمر ثانية أو ربما أقل، تجد نفسك في الأرض، تنظر حولك ترى البياض لونٌ للمشهد، وترى خيطًا عريضًا موصول بين بطنك و فتحة لجسد كائن أخر، و ترى كائنًا غريبًا أخر يدنو من الخيط ليقطعه، تلاحظ بوجود رغبة بالتكلم في داخلك، تحاول، تتحرك أوتارك الصوتية لتصدر صوتًا غريبًا يشبه أنينك من الفرح في عالمك السابق، تمر لحظات و دقائق، يلفك قاطع الخيط بقماش ويعطيك لكائنٍ أخر، فيهمس في أذنك :هذا قيدك الأول، وهذا قيدك الثاني و هذا قيدك الثالث و هذا قيدك الرابع..... ألخ، يعيدك القائل إلى كائن الذي كان مربوطًا بك، فيقبلك و يحضنك، بعد هنيهة يتكون سرابٌ على سقف الغرفة كوجه مندوب

تلك البناية، يقول لك ساخرًا :أهلًا بك في مملكة الموت البطيء، إذا لم تجد ما تحارب به الفراغ هنا فتشبث بأحد القيود، هذا أفضل عوالمنا الممكنة...

* * *

نبوءة في التسول

ثقيلٌ أنا ، أكثر من اعتقادي بذلك ، أكثر من كوني حقيقة ثقيلة على نفسي ، أكثر من الوهم المتراكم في عقلي ، و لا أعتقد أنها مبالغة مغفلة لذا عليّ الاعتراف بذلك على مدة اليوم كله ، كلما أفعل شيئاً أو أفكر في فعل شيء أو لا أفعل شيئاً أو لا أفكر في فعل شيء ، و أنا ساكن بكل هذا الفراغ الممتلئ بالفراغ أكون ثقيلاً ، هذا لو تيّقنت بأنني أتأمل في الفراغ طبعاً لعدم وجود يقين بأني على معرفة حقيقية تدفعني لأتأمل بواقعية ، و لكن رغم كل هذا أو كل هذا يدعمني بطريقة لأكون ثقيلاً لدرجة أفرط فيها حتى أصل إلى مستوى سريالي بعيدا كل البعد عن الوجود ، أي أن أتعالى على العقل و منطقه و تفكيره ، قد تعتبرون ذلك من السفسطة و لكن أنا أعتبره الاتحاد مع اللاوجود و تحرّر خيالي عن أوتاد الزمكان و الوجود ولكن رغم ذلك أظل ثقيلاً أو كل هذا يجعلني كذلك ،

زد على ذلك أو لنتكلم بسطحية أكثر ، أنني متسول سيئ ، لا أهين التسول بهذه العبارة ولكن أنا أرفع من

قيمتـه لأضع هذا العمل فـوق قوانين الطاقـة الفكرية، لهذا أنا لا أفعل شيئاً يُحسب فعلاً، حتى أحياناً أفعل شيئاً لأتخلّص من وهمية السكون الداخلي.

و هـذا مـا دفعنـي للبحـث عن عمـل أراوغ بـه وجودي الوهمـي في هذا الموت المسـتمر، و لتصبح ملامح وجه هـذه القصة أكثـر وضوحاً أنا أعيش فـي مدينة كبيرة تسـمّى اسـطنبول، هي مدينة يمكنك فيها أن تصبح من تريده في غضون شـهور، حتى لو كانت رغباتك تدفعك لتصبـح متسـولاً رائعـاً، أو كرديـاً متسـولاً في الشـرق الأوسط.

إنها لمهنة رائعة أن تكون كردياً و متسولاً في الوقت ذاتـه، هـذا هـو البطـل الأسـطوري الـذي نحلم بـه نحن الأكـراد في وطننا!، لا، ربمـا نحن كذلك، فلدينا من الغـرور ما يجعلنا كذلك فعـلاً، غرورنا الوجودي يجعلنا نتسـول ثـم نتبول على مـا حصلنا عليه من أشـياء هي في الأصـل لنـا!، نقول هي لنا لأنّنا وصلنا إلى أعلى درجة من الغـرور في الركوع المسـتمر لقطعـة خبز، لا أكثر من ذلك و لا أقل.

و لكـن كل مـا أقولـه الآن هـو كي أمـرّر الصفحة الأولـى مـن القصـة لا أكثر مـن ذلـك. حقيقـةً لربما أنا

فعـلاً ذاك الرجـل الـذي شـرحته قبـل قليـل، المتسـول الكـردي الثقيـل على ذاته و على وجـوده و على الآخرين المسـاكين!، إنّنا نشفق على الجميع لأنهم ليس عندهم ما يدفعهم ليصبحوا مثلنا متسـولين، إننا ندعوا كل يوم الآلهة لتجعلهم مثلنا و يعلو شأنهم في الوجود الحضاري، و نظل ننتظر قوة خارجية تفعل ما لم نستطع فعله، ها أنا أفعل ذلك بكل إنسـانيتي، يا إلهي ارفع رؤوسهم و ادعم جذورهم و جد لهم أصالة تجعلهم متسولين.

لنعد إلى القصة التي لم أكتبها بعد، أنا رجل كردي ثقيـل أعيش في إحـدى المناطق الفقيرة في اسـطنبول، هـذه المنطقـة مكتظة بالفقـراء و المتسـولين الجبناء، معظمهـم يملكون تلـك الفكرة التأمليـة التي تقول لهم (أنتـم أنبياء لهذا أنتم فقراء لهـذا الحد) و يصدّقون ذلك فعلاً ! أو ربما نحن كذلك.

و فـي يـوم مـا و أنا أتسـول السـكون اتصل بـي أحد الرفاق، هذا الذي نقول أنّه من الفئة التعيسة المسحوقة و قال لي أنه سمع عن حملة أمنية مكثّفة لضبط الخارجين عن الوجود و خصوصاً الفئة الكردية الفقيرة المتسولة، و بعد ذلك بقليل شـعرت بذعر مبالغ فيه و كأنني كنت أنتظـر ذلك لأخاف و لتدعم هذه المكالمة فكرة النبوّة

و الرسالة الإنسانية الفقيرة المغرورة!

وهنا بدأت فكرة النبوّة تنضج أكثر و بسرعة فائقة وكلّما مرّت لحظة ينفجر فيَّ ما يجعلني أتيقن أكثر من السابق أنني حقاً نبي التسول و السكون، مما يبث فيّ نشوة و لذة في التسول لأنني صرت نبياً جديداً و الآن على كل مشاعري الركوع لهذا الاعتقاد، هكذا بدأت المشاعر واحدة تلو الأخرى تركع بخنوع و لذة لاعتقاد النبوّة و لكن في الأخير و جدت من لم يركع له و تعالى عليه بغرور وهو «الخوف»، هذا الشيطان اللعين ظلّ منفرداً برأيه و في خلاف مع اعتقاد النبوّة.

و بدأت الأيام تمرّ، هكذا في صراع دائم بين الخوف و النبوّة ولكن في الأخير انتصرت النبوّة بطريقة مذهلة، لقد فازت في تحويل الخوف إلى طاقة تدعم الفكرة التأملية لها، أي أنّ الخوف صار الوجه السطحي لها وكلما انفجرت فكرة النبوّة في التسول بدأ الخوف يقول لها يجب أن تخافي من افتضاح أمرك يا سيدتي الحقيقيّة. و مرّت بعض الأيام في تصالح إيجابي بينهما حتى تلقيت رسالة من صديق يدعوني إلى لقاء مهم في منطقة أخرى و هذا ما جعل اعتقادي يدخل في أول مبارزة مع الوجود الخارجي و هو أن يظل في الداخل ولا

يخرج أبداً فهذه هي طبيعته التكوينية في الوجود، إنها لمبارزة قوية في إثبات وجوده في داخلي، لهذا وافقت على الذهاب إلى صديقي دون أن يعرف هو ما في داخلي ولا أيّ تلميح عن اعتقادي... و بدأت أحاول تفجير كل ما هو واضح لغيري و بذلت جهدي في تحويله إلى مبهم في ذاته حتى لو لم أكشفه أنا في اللقاء فسأكشفه لنفسي بعد اللقاء ليكون شيئاً غير قابل للتعبير عنه بذاته.

هكذا شرعت في تدمير الاعتقاد لأعتبر هذه المحاولات عمليات صقل الفكرة التي زرعتها في رأسي لأبدو رجلاً عائداً إلى طبيعتي الثقيلة بعيداً كل البعد عن فكرة النبوّة في التسول، و كل هذا الحوار و الجدال الحاد في داخلي سمح لي بأن أغدو أكثر ثقلاً من ذي قبل، ثقيلاً في داخلي وهادئاً لكل من يتفحص شخصيتي حتى لو كان طبيباً في تحليل الشخصية، هه، و من هو القادر على معرفة الحقائق التي أخفيها في داخلي إذا لم أعبّر عنها أنا، ثم هل يمكنني فعلاً أن أكون معبراً عن حقائق نصفها مبهم لي و للغتي البوحية، ولكن لا يهم، فها أنا أجد أول هدف يحقق لي لذةً ذاتية لأمضي قدماً إلى تكوين مملكة متحرّرة من الوجود وقوانينه العتيقة، يجب عليّ حراسة فكرتي الراديكالية الذاتية

حراسةً متشددة، و أكثر الأمور الإيجابية في هذه المبارزة هي أني لا أتكلم كثيراً، يمكن القول بأني لا أتكلم إطلاقا، فحين أدخل في مجموعة تتجادل على أشياء تافهة، يتوجب عليّ الصراخ عليهم (يا أغبياء، ما تتكلمون عنه و تفكرون فيه تم ترويضكم بالوعي الاجتماعي لتقولونه وأنتم كلكم فخراً بأنكم أصيلون في ما تفعلونه و تفكرون فيه) لكن رغم ذلك لا أنطق بحرف لأنني ثقيل كما تعلمون، و أحياناً أيضاً تزداد شدة الغباء و الغفلة منهم ليجبروني على تصديق الفكرة التي تقول أنني اللّه لأصدقها و أنا كلي ثقل و كره لهذا التكوين الاجتماعي المنغلق و التافه ولكن بعد لحظات أعود رافضاً هذه الفكرة، و أحياناً أيضاً يتكلمون في أشياء أعرفها جيداً و لكن رغم ذلك لا أتكلم معهم، ليس غروراً شخصياً إنّما حفاظاً على ثقلي المتحرر من قوانين الوجود.

كل هذه الأمثلة لتدركوا جيداً أنني لا أتكلم أبداً و لتفهموا أنني سأكون الفائز في هذه المبارزة و أن كل حقائقي تدعم وصولي إلى هدفي الذي أركض نحوه بكل قوة، حتى أنّ الخوف نفسه صار حليفاً لنظريتي و اعتقادي و هذا أفضل ما يتيح لي نهوض الحقيقة التي

أكونها في ذاتي و لذاتي و لكن لنرى هذه المبارزة الحادة بين الوعي الاجتماعي و نبوّتي في التسول، و لأحيط نفسي بطاقة إيجابية أظل أردد في نفسي حقيقتي الكردية الحضارية لأنفخ في عضلاتي أكثر، فهذه أكثر الأمور الإيجابية، فالحقيقة التاريخية تحضر في كل نظرية و تدعمها إن كانت صحيحة و تدحضها إن كانت خاطئة أو فارغة، الآن بعد كل هذا الدعم يمكنني القول أنني حقاً نبي في التسول، فأنا كردي، إنها لحقاً نشوة لذيذة في أن تكون كردياً و تدرك أنك متسولٌ ثقيل أو أنك كرديٌ في التسول، حقاً إنّها لسعادة حقيقية حين نبعد الغموض عن الحقائق الموجودة في داخلنا و عليَّ الحفاظ على توازن ثقلي لأعبر هذه المبارزة و أنا المنتصر في هذه الجولة الأولى. ولهذا استيقظت في الواحدة ظهراً رغم أنها كانت متعبة جداً محاولة النهوض باكراً في هذا الوقت، لكنني فعلتها في سبيل هدفي و من ثمّ قضيت ساعتين في غسل وجهي و ما هنالك من تجهيزات شخصية مثل ارتداء الملابس و تمرير الشعر مرة واحدة للخلف و وضع الحذاء في القدم و ربط الخيط و إغلاق الباب و كلّ هذه الأشياء كانت متعبة جداً.

لربما تقولون في أنفسكم أنني أبالغ في هذه القضية

إذاً فلأمرر سؤالي على هذا السطر المهترئ: لماذا ترغبون في فرض طرقكم و أساليبكم على غيركم، ثم ألا تعلمون أنني من قوم يولدون وهم ذاهبون إلى المذبحة؟. ليست مبالغة هذه أيضاً فنحن نولد في ثانية و نذهب إلى المذبحة في الثانية الأخرى، كما أن مفهوم المذبحة مختلف عن مفاهيمكم القديمة، فعندنا تعني الركوع و التلذّذ بذلك، ففي الثانية الأخرى نركع بلذّة و هذه هي المذبحة الحقيقية اللذيذة لنا نحن فقط، كم أرغب في أن تصبحوا مثلنا لتفهموا ذلك بقدر كاف ثم إنّني قلت لكم سابقاً أنّ بعض ما في داخلي يظل مبهما و مخيفا بعض الشيء لغيري، لا عليكم فلتدركوا ذلك فقط بقدر بسيط من الفهم يكفيكم لتتكاثروا، فلنعد إلى القصة الثقيلة التي أحاول فك الحصار الغامض عنها.

لا، عليّ هنا توضيح بعض الأشياء مثل لم أنا ثقيل؟ و ما هي الأسباب الأعمق لهذا التكوين؟، فكما تعلمون أنا مكلف للكشف، لتغيير جلود المعنى، ثم أنه من الطبيعي جداً فعل ذلك، فأنا مريضٌ بالأثقال، و قد ترون أيضاً أن استعارة كلمة (مريض) لا تلائم الجملة ولكنّكم مخطئون فلأكرّر «إنّ بعض الكلمات في قاموسنا لها معان تختلف عما تعرفونه « ولهذا المرض

الجميـل طريقة في سـلخ جلد الرغبة فـإذاً المعادلة تعني أنني أنتقم.

نعـم، أنتقـم....، فحين أفكّر ببـرودة فأنا أخطّط في داخلـي للانتقام من أشـياء أخرى، مثـل الانتقام من جبن غيرنـا مـن الشـعوب أو من فراغهـم أو مـن المذبحة التي (رغم لذتهـا) نذهب إليها بعد اللحظة الثانية من الوجود، فعلـى الثقيـل، النبـي، المنتقـم، الحاضر في موسـوعة الحضـارة طرد الجبـن للركوع للخبز بطريقة اسـتثنائية لذيذة، تماما هذا ما كشـفته لنفسـي بعـد خروجي من البيت، هذا هو المعنى الأوضح الذي لديه من المصداقية مـا يكفيـه ليصبـح معزوفـةً جنائزيـة متعِبـة و متعبـة، وخروجي من البيت رغبةً في تأكيد فكرة النبوة أفضل دليل يمكن استخدامه في هذه القضية.

الآن أنـا متلذذ عالي، نبي مكشـوف لنفسـه ليؤكد لنفسـه ما تريده نفسـه، و لأوضح الغرور بشـكل آخر، كمـا قلت أنني كـردي أي أنني أملك في جيناتي غرورا حضاريـا تكوّن على مـدى ألوف السـنين فكلّما مررنا بنكسـة إنسـانية أو نكزة إلهية امتلأ جوف جين الغرور أكثر، و كلما وُجدنا في مشـهد جنائزي أو في حضور دم عائلة كردية تخدّر الجبن التاريخي أكثر، فالإنسان

الـذي يشـفى أو ينجـو مـن المـوت حيـن يسـحب الموت عائلتـه مـن أمـام إدراكه الوجدانـي يكون نبياً مشـبعاً بالغرور لينقل لنسـله هذا الجين الخاص بنا (من الطبيعي خصوصيتـه فألوف السـنين ميـزة فعالـة لتكوين طفرة استثنائية) فلنقل بعبارة دقيقة نحن شعب الغرور المختار، و أمـا علاقة الغرور بالتسـول لا تحتاج إلى توضيح فكل مغـرور متسـول و كل متسـول مغرور بما عنـده و كلما كانـت الجـذور التاريخيـة جديـرة أو محترفة بالتسـول كلمـا كانـت الأجيال القادمـة من هذه الجـذور جديرة بالتسول و هنا نقطة مهمة أخرى، الكردي عنيد للغاية، كمـا يعلـم الجميع أنّنا نلقب بالشـعب العنيـد، نرفض و بقسوة اشتراك شعوب أخرى في مجازرنا و في ركوعنا للخبـز وفـي جيننـا الخاص، هـذه ميـزة مجانيـة وهبتنا الطبيعة إياها مع جين الغرور و مع ثقلنا اللذيذ.

ثـم إنّ نظرة الشـعوب لنا تُنضج ما لدينـا من اعتقادات فنحـن متهمون بانتحال الإنسـان، بسـرقة بطاقة الدعوة إلـى الحياة من جعبة الطبيعـة، و متهمون بالعار الكوني بتعبيرهم الخاص، و غير قادرين على النظر إلى السماء، غيـر جديرين (كما يقولون) بالوجـود، لا يجب أن ننطق أبدا، لا يرغبون في أن نضحك، أن نمسك قلماً و نكتب

حرفـاً ، يظنـون و نظـن نحن أيضاً أن كل ما نعيشـه أمر محتـوم تمامـا ، و منظم لأنّنـا كنا نصنع معجـزةً قذرة ، رغبةً شـاذة ، جنوناً ميتافيزيقياً ، ملامح ضارة بالدهشة ، علـى حد قولهم و حسـبما نعتقـد نحن أيضـا ، لهذا قمنا بوضـع قوانين تحكمنـا و تتحكم بنا ، فمثلاً عندنا رفع اليد جريمة عظمى بحق القومية ، و الاقتراب من السـؤال كالاقتـراب مـن النـار ، نار فردوسـي نكرهـه ، و خلق الذات لخرافة لا تحرّك أذهاننا ، وإيجاد المعنى من الغباء فنحن لدينا معنى أعمق و أعظم من كل معاني و ماهيات الوجود !.

لاإرادياً لا نريد شيئاً أما إرادياً فبعضٌ منا يضحك على نفسـه حين يختار الخـروج من بنائنـا الاجتماعي ، يرغب بشـدة ساخرة أن يتقزّز من نشوتنا الخاصة ، و يسخط إذا أثبت لنفسـه أنّه سـاخر مثالـي من حقيقتـه الوراثية ، قد يصـل إلـى تمرد رومنسـي ليتقلّب في لذتـه الوهمية ، إلى موت لذيذ في سبيل نشوته الرومنسية.

و كل هـذا يصبّ فـي مصلحتنا اللاإرادية ، في نضج غرورنـا الوراثـي بطـرق مباشـرة أو غيـر مباشـرة ، فـي خواصنـا الحضارية فنحن شـعب الغرور المختار ، شـعب اللعنة الجميلة.

إنني ككرديّ أعود دائما لنقطة التكوين الأولى، إلى غروري المنهجيّ الذي يخلق لي بنيةً اجتماعية و نفسية، ومن هناك أبدأ بالسير على طريق الاعتقاد المشحون منه، وكل خطوة هي بمثابة نقطة إيجابية لشهوة الكردي لدمي الذي يغلي متعةً وهو يجري في شراييني، لأصبح في الأخير المثال الأعلى للكرد، النبي المتسول المغرور العنيد، و من بين الخطوات هو احتكاكي بقضية اليوتوبيا، إنه لأكبر إنجاز وصولي لهذه النقطة من التكوين الشخصي، فالواقع أنّنا نحن الكرد لم نقع في مصيدة اليوتوبيا ولا في حفر التأمل المستقبلي و لم نخطّط له ولا نفكر فيه حتى، فنحن نعيشه، نعم نعيشه.

حياتنا هي أكبر يوتوبيا في نظرنا و اعتقادنا، أجمل خدعة واقعية، ثمّ نحن و كما ذكرت سابقاً أن وجودنا و ماهيتنا تركيب واحد، قضية واحدة لا فصل بينهما ولا حتى نخطّط في التنقيب عن القضايا الصغيرة في هذا الموضوع، إنّنا نرى الأشياء بطريقة سطحية، تجذبنا البساطة، نمزجها بعواطفنا المبتذلة لننتهي في الأخير إلى أنّنا أعظم شعب في السكون.

(ها أنا و للأسف أحاول جر نفسي إلى خانة التناقض،

هـا أنا أصنع دائـرةً ألهث فيها بإرادتي لأكسّـر حقيقتي الوراثية ، حيث ظننتني لست منهم و كتبت هذه الصفحة الأخيـرة و كما قلـت لكم عن اللذيـن يضحكون على أنفسـهم باختيارهـم الفـرار مـن بنائنـا الاجتماعـي، ها أنـا منهم) وها أنا سـاخطٌ على نفسـي بهـذه الجملة التي كشفت فيها أن ما في داخلي و ما خارجه متناقض.

إذا فلأتراجـع قليـلاً قبل أن أغـدو متمرّداً رومنسـياً ، ولكن فلنجمع قليلاً ما توصلنا إليه في طرح بعض نقاط الكـرد ، ألا تـرون أن كل مـا ذكرته يدعـم نبوتي في التسول؟؟

ولتعلموا أيضاً أنّه رغم كل هذا لدي قلق بسيط، قلق كردي بسـيط مـن تحولي إلى شـخصية لا توافـق بيئتنا الاجتماعيـة ، إلـى شـخصية تحـاول خلق الـذات، أي أنّ كل مـا ذكرتـه كان من دافع القلـق أكثر من البحث عن الحجج لإثبات نظريتي فـي النبوّة، أعرفتم الكردي جيداً؟

طرحي الأخير مفيد في فهم الحدث الأول من قصتي، فهـو لا يُهضـم دونما توضيـح، دونما تحليـل، قد يكون صحيحاً أو لا ، لا يهم، ولكن فلنرى ماذا ستفهمون منه .

بعد خروجي من المنزل، كهفي الجميل في اسطنبول،

في منطقة الأنبياء، البروليتاريا المستلذة بالنبوّة، مررت بالحديقة التي تقع قبل محطة الباص بخمسين متراً، يتوجب عليّ المرور منها رغم كرهي للطبيعة التي لا أفهمها أو فلنقل إنها من ألدّ أعدائي، دخلت إليها كما في كل مرة أدخل إليها، شاحب الوجه، مختنق الصدر، خجولاً، متردّداً في المشي، ثقيلاً، متمسكاً بحقيقتي الحضارية كسلاح أوجّهه في وجه الطبيعة، أنظر كاللص في وجوه الناس الجالسة المتأملة في الطبيعة، ناثرا كرديتي في حقول الغرور و إذا بي أرى ذاك الرجل الكردي الذي أتهرب منه أحياناً، أو ربما كثيراً (سربست) كان جالساً يتناول الكتاب بطريقته المعتادة التي تثير الغرابة و الفضول، كان يختلس النظر بين الفينة و الأخرى متفحصاً المكان وكان الناس حوله يسخرون منه و يقهقهون بأعلى صوتهم، و من قصر المسافة سمعت أحدهم يقول لصديقه بسخرية و من حسن الحظ إنهما كرديان

-انظر، انظر، إنه يقرأ كتاباً هذا الغبي!

ردّ عليه الآخر بعد أن فحصه بنظرة

-دعه في الغباء فغداً لناظره قريب.

ثم عاد يقول بعنف بعد أن هزته حقيقته الكردية

- ألا يعلم أنه في اليوم الأسود سيكون وحيداً.

قال الآخر بطريقة إجرامية

-هؤلاء الذين يضيعون وقتهم في هذه الكتب السخيفة عارٌ على قومنا.

أخذت أنحرف عن الطريق كي لا يراني سربست موجهاً وجهي بين العشب الأخضر، و ما أن وصلت إلى آخر الحديقة حتى توقفت فجأةً، هكذا، بين الناس، شارداً، كانت فيَّ رغبة تلتهب، تصرخ في داخلي، حاولت إخمادها و لكن للأسف، ها أنا أعود مستسلماً إلى سربست، كان ما يزال يقرأ، سيجارته وصلت إلى آخر نفس وكانت المسافة بيننا بضع أمتار فقلت له و أنا أصعد للأعلى، فمكانه كان عالياً قليلاً

-ستحرق اصبعك، فلترمي هذه السيجارة.

اندهش مني و رمى سيجارته فوراً ثم قام مبتسماً لي، فرحاً بقدومي

- أين أنت، منذ زمن لم نلتق

-كما تعلم أظل في الفراش دائماً

-فلتجلس، فأنا مللت قليلاً، مر شهر لم أتحدث فيه مع أحد.

سربست، رجل في الأربعين من عمره، سمينٌ، ذو رأس كبيـر و وجـهٍ عريض، ملامحه بسـيطة، خجـولٌ جداً، يتهرب من الجلسات و الأماكن الصاخبة، هادئ الطبع، ثرثارٌ بعض الشـيء، كان موظفاً ثم لأسبابٍ أجهلها ترك عملـه منذ عاميـن، (و كما هـو قال لي) يمضـي الوقت فـي القـراءة و تعلـم اللغات، لديـه أم تعيش معـه و إخوته تناثروا بين الدول، محبوبٌ عند الشيوخ و لكن الكهول و الشـباب يتهربون منه و يقولون أنّه غريب الأطوار، يأتي أحيانـاً ليجلـس هنـا وحده، ليقـرأ أو ليمشـي لا أكثر، كنـا نجلس معاً نتحدث فـي أمور كثيرة، أحياناً أفضل الجلوس عنده و التحدث معه و قليلاً ما أتهرب منه حينما أفضـل الجلوس لوحدي، أحـس أنّ في داخله أكوانا من المعانـاة رغـم أن أسـلوبه و ملامحه لا يوضحـان ذلك أما الآن فعودتي هي لاستفزازه، لا أكثر و لا أقل.

و بعد الترحيب نظرت إليه كمن سمع فضيحةً عنه إذ أنّ شعبنا يخاف من الفضائح كثيراً فعندنا يتلذذ الأفراد بفضائح غيرهم رغم خوفهم من فضائحهم الخاصة

-لمَ أنت بائس جداً؟

ما أن سمع السؤال حتى بدأ يراوغ و يتهرب من الجواب كقط هارب من كلب، ثرثر و ثرثر حتى ضجر العشـب

منه و لكن أنا ظللت صبوراً فأعلم جيداً أنه سيقول أشياءً مهمة في ثرثرته و لكن الحق أنّه كان ممثلاً عظيما فها هو ينهي ثرثرته لأبقى دونما جواب فإذا به بعد أن نظر بهدوء إلى وجهي يضع قناع التفاؤل جانباً

قال لي بجدية مطلقة و كأنه قاض في محكمة ، أتته قضية مهمة

-أعلم أنك لا تستند على قول أحد لهذا لن أسالك سؤال الشعب المعتاد (من قال لك هذا) ولكن هل لي أن أعلم كيف أدركت ذلك؟

-لأنك حقاً رجلٌ غارق في البؤس

بينما هو صامت عدت أقول

-لم تكذب على نفسك لست ذاك الأحمق الذي تتخيله..

وإذا به ينفجر

-أتعلم؟، تلك المجازر التي حدثت مؤخراً لشعبنا ، أنا فرحٌ بها ، نعم، كنت أضحك في منزلي حينما كنت أرى صور الضحايا ، خاصةً صور الأطفال .

تعجبت كل العجب و اندهشت بكل مشاعري التي تحولت إلى دهشة ، لم أنطق ولا حتى فكرت في ما

سأقوله فهو عاد يقول بعد صمت كابوسي

-هـذا الشـعب المعفن، الغـارق في الغبـاء الموروث، كلـه غبـار لا أكثـر، إذا خرج أحدهم من هذا السـجن فإما سيقع في فخ اللاوجود أو في فخ التمرّد الرومنسي، أتعلـم لـم؟، لأنـه لم يخـرج ليبحث عـن نفسـه إنما خرج ليسـتمتع بلذة وهمٍ آخر، لهذا أريـد الدمار لهذا المجتمع لربمـا يخـرج منهمٍ واحـد فقـط، يرغب فـي البحث عن نفسه، عن ذاته، عن (الأنا و النحن).

-و أنت؟

-أنا!

أطلق زفيره و عاد يقول ووجه يزداد احمراراً و غضباً

-أنـا رجـل أحـاول الخروج منـي، أحاول بـكل ما بي من تعاسـة، مـن كراهية، ولكـن، تبا و ألـف تب، أنا منكم، و لسـت ذاك الواحد الباحث عن شيءٍ ما، نعم، أنـا رجلٌ بائس أظل أضحك على الجميع بهذا القناع حتى صرت أضحك على نفسـي دون أن أدري، ثم ماذا سـيفيد إذا صدقت أوهامي أو لم أصدقها فأنا منكم.

نظر إلى السماء متأملاً و قال بعد أن طرد غضبه

- منـذ عام و نصف تركت عملي و حياتي الشـخصية

و بـدأت بالسـفر بيـن الكتـب، و كل يـوم، لا بـل كل سـاعة مـرّت لاحظت أن عدد الذين يتشـبثون بـي يزداد، بسخريتهم، بتقاليدهم، بعاداتهم، بأفكارهم الموروثة، بحسدهم، بأوهامهم، بكراهيتهم، حتى الذين أحبوني تشـبّثوا بـي لأعـود إلـى مـا كنتـه سـابقاً (ذاك الرجـل التقليدي المحافظ القذر)، الآن أعترف لك أني عجزت، أعتـرف لك أني وقعت في فخ ثالث، لا أعلم ماذا أسـميه لكنني وقعت فيه للأسـف!، سـأقول لك مجدداً الشعب الـذي يبحـث عن الجنس و الخبز و الـزواج فقط يجب أن يفنى!، نعم يجب ذلك.

قمـت دونما كلام كالفـارغ، مشـيت دونما تفكير كالمنبهر، مشـوش دونمـا إدراك كالمريض، هكذا ودعتـه دون تحيـة أو كلام و الآن لا أريـد بتاتاً التفكير فيـه و فيمـا قالـه هـذا الرجـل و لا حتـى أود أن أتذكره للحظـة طيلـة حياتي، الآن نسـيته، الآن أضحـك و أقول لنفسي (من هذا، لا أعلم) و مشيت.

كان الجو خانقاً، يكاد جلدي يحترق من الشـمس، و أكاد أختنـق مـن هذه البيئة، أنا مشـوشٌ جـداً و ثقيلٌ جـداً بـكل ما بي مـن هواجس و أوهام، مشـيتي تشـبه مشـية رجلٍ هرب من عملية استئصال قلب، وجهي أصفر

كالليمون، و بطني يصرخ من الجوع والعطش رغم أنني شربت الماء قبل قليل و لكن عطشت مجدداً، أشغل نفسي بهذه الأمور لأنسى ما في داخلي، ليخمد بالنسيان، فكثيراً ما أحتاج إلى بعض الأوهام لأتهرب من مشاعر و أفكار تكاد تقفز للعالم بصوتي ثم إنّ الحياة لا تعاش إذا لم نخلط الأوهام بالرؤية و إذا أجبرتنا الحياة على الاختيار بينهما فمن المؤكد سنختار الوهم، و هنا تختلط المصلحة الشخصية مع مصلحة العالم و الطبيعة، و كل ما أقوله الآن رغم ثقله هو لمصلحتي الشخصية، إذا أين كنت!؟

وصلت إلى موقف الباص المكتظ بالناس، الشباب منهم رؤوسهم منحنية على الهواتف و بالقرب من الموقف سيدة جميلة تتفاخر بجمالها وهي تلتقط صورة لنفسها أما الرجال كانوا منشغلين بأفكارهم و خيالهم الضيق، أجزم أن معظمهم يحسبون المال الذي تبقى معهم بعد أن دفعوا كل ديونهم الصغيرة فهذا هو يوم الحساب و جميع العمال يأخذون أقساطهم في هذا اليوم تحديداً و لكن الغريب في الأمر أنني لم أجد سعيداً بينهم، وجوههم توضح حيرتهم و مخاوفهم المستقبلية و مشاكلهم العائلية التي تكبر ولا تصغر، إن عمال منطقتنا هذه

يتقبلـون أوضاعهم فـي كل الأيام إلا في يوم الحسـاب، و كأن يوم الحسـاب يكشـف بعض أوهامهم و السعداء منهم تستطيع نزع أقنعتهم بسهولة.

فلأعـد إلى قصتي قبل أن تنحرف، كل ما يجري في نفوسهم لا يهمني إنما أضيع الوقت قبل قدوم الباص الذي سأذهب به إلى صديقي الذي من خلاله أنهي أول مبارزة، و مـن المؤكد أنني الفائز و لكن حالتي النفسـية تزداد سـوءاً و أنا لم أدخل الباص بعد، ها هي البيئة تشتدّ ثقلاً و ضجراً مني و الصدفة الأسـوأ أن يومنا هذا هو يوم من أيام الصيف الحارة، فيجعلني هذا ملتصقاً بقوة الجاذبية بشكل لا يصدق، ففي الأيام الأخرى لدي أمل دائم أنني سـأطير على بغل، هكذا ببسـاطة، و لكـن يومنا هذا يجهز على أمنيتي بضربته القاضية

و لكن ليس مهماً هذا الآن، فلأنتظر الباص.

مرّت دقائق و أنا أتكئ هنا و هناك على أي شيء يمسك بظهري، إذ لديّ اعتقاد دائم بأنني سأسقط في أية لحظة (مثـل جميع العمال). و ها هو البـاص قادم، إنه قادم، إن هـذا شـيء لا يصدق، إنها معجزة بالنسـبة لنـا، فخيالنا يظـل يقنعنا أننا لن نخرج من هذه المنطقة أبداً، أما هذه المعجزة فهي تداعب دهشتنا لثوان فقط، لا أكثر، و ما

أن تمضي هذه الثواني حتى نعود إلى أنفسنا قائلين (هذا أيضاً لا يعني شيئا مثل جميع الأشياء الأخرى)، تموت الدهشة هكذا ببساطة شديدة لأننا نعرف أن كل شيء ليس أكثر إعجازاً مما نعتقده في نفوسنا، في قعر الاعتقاد، ذاك الذي يظل معنا من اللحظة الأولى إلى آخر لحظة نعيشها على هذه الأرض.

أدخل الباص مثلما أدخله دائماً، رافعاً رأسي كأي عضو في مجلس الكواكب، متشبثاً بنفسي، أراقب الوجوه و الثياب و الحركات، السائق هو أول من دقّقت فيه، و مثل الجميع كان هادئاً و مرتاحاً في مكانه و كأن العالم بأكمله بخير، و كأن معاناة البشرية لم تكن سوى لعبة فاجئنا بها مهرج ثم أخفاها تحت إبطه، و كأن اللعبة التي فقدها طفلٌ في الحرب كانت قذيفة لهذا فقدها، أي كان الحدث لصالحه، و كأن القضايا الجدلية لا وجود لها.

ماذا أقول!، لم أفهم لماذا تذكرت هذه الأمور و أنا أنظر إليه كما لا أود فهم اللامفهوم الذي يختبئ خلف المفهوم، والأهم أن هذا ما شغلت به نفسي أو نفسي أشغلتني به و أنا أمضي قدماً بين دهاليز الركاب، كما هو، ولسوء حظي دائماً وأبداً، كان الباص ممتلئاً

ومكتظاً بالأنفاس والعيون، الكلّ يتفحص الطبقة الأخرى من المجتمع، العمال ينظرون إلى الرأسماليين بقرف رغم قلتهم في الباص و القلة الرأسمالية تفعل ذلك أيضاً، أما البرجوازيون كانوا من الناجين من هذه المعركة التي لا تبقى سوى لحظات، فكما وضّحت كثيراً أن العمال يسمعون صوت الاعتقادات فينسون كل شيء وما أن ينسحب العمال حتى تنتهي المعركة، بفوز من، لا أحد يعلم!

أخذت مكاني بين الحشد و مسكت الحديد الذي وُضع فوقنا لنتشبث به، رغم أنني تعذبت حتى وجدت مكاناً (عشرون سنتيمتر بمثله)، ولكن هذا العذاب كان بسيطاً جداً فما أن توقفت حتى بدأت أتعرق أكثر فأكثر وأشعر بالدوار كأن الباص يطير بين لهب الحريق.

هكذا مرت اللحظات الأولى من وجودي في الباص وحين أقلع الباص بالطيران إذ بي أصطدم بمن خلفي، كانت سيدة جميلة جداً، ذات قوام رفيع وصدر ممتلئ وملامح بسيطة، ولحسن الحظ لم تنزعج إلا للحظة فقط، قدمت اعتذاري فابتسمت من باب المجاملة لا أكثر ولا أقل ثم عادت تنشغل بما في عقلها، الأهم أنّ الحدث مر

بسلام ومع ذلك كان حدثاً جيداً، صدفة جيدة، إنّنا في أيامنا هذه لا نصطدم إلا بالحمقى وهذا ما أشعرني بالطمأنينة، أعلم أنني أبالغ بكلمة طمأنينة لكن من هو مثلي، قد يشعر بالحب بنظرة عابرة من عجوز في شارع عام، ثمّ إنّ هذه اللحظة لا تدوم إلا لثانية أو أكثر قليلاً فلهذا أسميها طمأنينة، و ها هي اللحظة تمر وكأن شيئاً لم يكن، وكأن الكون وجد في لحظة واختفى فيها، ثم مرت الدقائق السيئة الأخرى وفي تلك الدقائق كنت أشك في شيء ما، تلك السيدة كانت توحي بأمر ما ومن عادتي عدم النظر إلى الغرباء كثيراً ولكن كنت أراقب حركاتها بطريقة غير مباشرة، كانت حركاتها غريبة وكأنها تريد أن تخبرني بأمر ما أجهله، ولأني كائن ذكوري تجاهلت ذلك بكبرياء، بكبرياء مصطنع، وما أن شعرت بأنها تجاهلت ذلك حتى شرع الفضول يأكلني ببطء، ولأني ضعيف وهش، استدرت نحوها لأذكرها بما كانت تريده، كانت هي غافلة عما حدث لهذا قمت ببعض الحركات والإيحاءات لتدرك هي ذلك بطريقة غير مباشرة، لكنها ظلت شاردة بما في مخيلتها، وفي حين كنت أضع الاحتمالات الواردة لأعيد انتباهها إليّ، لاحظت شاباً بعيداً مني بما يقارب المتر، كان غريب

الأطـوار، لا في شـكله إنما في حركاتـه، كان ينظر إليّ بين الفترة والأخرى، حتى أحياناً بين الثانية والثانية، اسـتنتجت سـريعاً أنّـه كان يرى ثيابي أو جسـدي غريباً بعض الشـيء لهذا تجاهلته وعدت أبعث الرسـائل الخفية إلـى السـيدة التي كانت مـا تزال بجانبـي. فلأعترف أن انشـغالي بها لم يكن سـوى مراوغة للوقت ليمر أسـرع، فهـذا (بعيداً عن الحدث) عمل نفعله دوماً كي لا نسـمع ونرى ما يجـري بداخلنا، كي لا يعمل العقل، (نعتقد أن كل من يشغّل عقله يجن فوراً) ثم إنّه لديّ أسباب أخرى تجعل هذا الحدث حدثاً دون إثارة، حدثاً عادياً جداً، فمن المؤكـد أنها لن تحبني ولن أحبها ولن نتزوج، ثم إنني لا أؤمـن بالحب ولا أحبذه، وأكثـر ما يضحكني هو زواج الشـرقي وحب الشـرقي، فالـزواج يتم بطريقـة أخذناها عـن أجدادنا كشـرط أساسـي فـي الحياة ولأنّنـا نعتقد أنّه شـرط أساسـي نكون سعداء جداً، سـعادة مفرطة، لكـن لـو تمعننا فـي الموضوع لثانية لا أكثر سـنجد أن هذه السـعادة مبتذلة وسخيفة بشكل لا يطاق، فالحجج أو أسـباب الزواج تكون سخيفة وضعيفة جداً، وهكذا نجـد أنّ الحب فخ عندنا، نعـم إنه فخ بعينين مغمضتين، وما نسـميه حبا ليس أكثر من مـرآة تعكس مجتمعاتنا

المكبوتة، المذلولة، ضعيفة الإرادة، حيث تتلاشى معاني الحب الحقيقية ليصبح مجموعة من رغبات مصطنعة تضحك على عقولنا، رغبة الجنس، رغبة التحرر والهرب، رغبة التجديد، رغبة التقليد، و تكمن القوة الكبرى في رغبة التقليد، مجتمع بأكمله أولاد للمقلدين و هكذا، نقلد كل شيء ونرى أنّها الحقيقة التي يجب أن تحدث بمجرّد أنّ الآخر فعله.

أوه، أعود منحرفاً عن القصة كلّما شردت في شيء، لنعد الآن إلى القصة التي تأخذ سياقاً لا أستطيع إيقافه، هذه المرأة التي كانت جميلة من خلال حسي وتجربتي التي أخذتها من الحدث تتحول أو بالأصح أنّها لم تكن تلك التي تخيلتها أو أجبرني جهازي النفسي وقدرتي التكوينية على إعطاءها بعض المشاعر و الصور التخيليّة الفاتنة، بعد العديد من الإيحاءات والنظرات والرغبات اقتربت مني بشكل مباغت بعد أن عجزت عن توصيل رسالتها بالألغاز:

يجب أن تخرج من هنا.

ها هنا صار المشهد يغطس في الغرابة، عدت أقول لها محاولاً الاقتراب أكثر مما يجب أن أفهمه من رغبتها الذاتية في التعامل مع غريب في باص غريب في مدينة

غريبة في شرق أوسط غريب و قذر

-إن كنت تخافين على صحتي فلا تهتمي لذلك فكل هـذا الضغـط الهائل ليـس إلا ضغطاً سـخيفاً مقارنةً بما فـي داخلي من ضغط و قلق وجودي، ثم إنها المرة الأولى التـي أخرج فيها من منطقتي ببـاص لكن ألا تعلمين أنّنا نحن البشر نجد الأمر غريباً في البداية ثم مع مرور الزمن نعبده، نعم، نحن نعبد أي شـيء، فمثلاً يمكن أن أخلق شيء في داخلي ثم أعبده كأنه مركز الكون.

ثرثرتي هذه كانت توسـيعاً للحـوار لربما تعلق كلمة بذهنهـا و تحبني، رغم أن هذا الاعتقاد سـخيف لكن لا يمكنني مراوغته، أخذت تميل يميناً و يسـاراً بجسـدها الفاتن أما ملامحها توضح أنها لم تستطع توصيل ما ترغب بتوصيله كما أن احساسـاً آخـر كان يمتزج بتعابيرها، كأنها شفقة!

-رائحة جسدك بول، بوووووول!

-ماذا؟؟؟؟؟

صدمت، تفاجئت، شـممت جسدي، ثيابي، صدري، لم أدرك شيء، ولا أية رائحة، في اللحظات الأولى فقط، ثم...

نظرت في وجهها ، عابساً خجولاً منبوذاً ، كان جميع من حولي يعرف ذلك ، عيونهم كانت تقول (اخرج أيها المقرف) ، هي ابتعدت ببطء ، أخذت تدخل بين الناس بعيداً عني ، و كهلٌ تذمّر و أطلق زفيرا و كأنه يقول (إذا لم تخرج سأقتلك) ، كنت ما أزال واقفاً مصدوماً أشعر وكأنني منبوذ في الوجود لا بل حتى الشعب الكردي بأكمله منبوذ لا بل البشرية بأكملها ، الرائحة الكريهة المنبعثة مني تتجول بين أنوف المتواجدين ، تخبرهم عني ، عن قذارتي ، صار الجميع يعرف أنني تبولت على نفسي ، أنني تبولت على حياتي و وجودي و جيني ، أنني فئة يجب أن تسحق و تنفى من الوجود ، أنني فردة حذاء مهترئ يجب رميه في الحاوية ، أنني حشرة تزعج البشرية المستمتعة بالحياة ، بالسعادة ، أنني لاشيء ، حتى لا أستحق مكانة الغبار في وعي الناس ، حتى لا أستحق تخيل أحد لوجودي.

وجهي العابس صار يدنو ، يقترب من الأرض ، لا يتجرأ أبداً على المواجهة ، على الإرتفاع عن الأرض ، على نهوضه ، و لكن....

ها هي النبوءة تأتي بوحيها و تقول في أذني (أنت نبي لهذا تبولت على نفسك و الآن يجب أن ترفع رأسك عالياً

لأنك تبولت إذ أن هذه أول إشارة على النبوّة، ارفع رأسك و قاوم تفاهة العالم) شعرت بالفرح، نعم شعرت، ها هي أول علامات النبوة تظهر عليّ، بينما أرفع رأسي وصل الباص إلى الموقف، كان الجميع ينظر إليّ، كان الجميع ينادي (أخرج و سنعطيك ما تريده)، توقّف الباص في المحطة و فتح الباب، كان رأسي حينها قد وصل إلى مستواه الطبيعي، و الصمت ارتفع في الباص، الجميع ينتظر بفارغ الصبر، مرت لحظة، ثم دقيقة، قاومت بشدة، بعنف، ولم أنزل من الباص و ما أن أدرك الجميع ذلك حتى خرج بعضهم، الذين لا يهمهم إذا تأخروا عن مواعيدهم لدقائق، يمكن القول أن نصف من كانوا في الباص قد خرجوا مع ألف زفير وزفير أما من تبقى في الباص أجبر نفسه على تحمل رائحتي القذرة أو لأن مواعيدهم مهمة جداً، أما تلك المرأة نزلت من الباص، كنت سأرفسها وهي تخرج لو لم أكن نبياً.

خرج من خرج و ظل من ظل و ابتعد عني من ابتعد أو من استطاع ذلك وتحرّك الباص، نظرت إلى مؤخرة الباص، كانت بعض الكراسي فارغة فأخذت أدنو منها حتى جلست في آخر كرسي أو أبعد، نعم ابتعدت قدر المستطاع و جلست بعد أن هدأ الوضع قليلاً،

بعـد أن خرج نصف الـركاب هرباً مني، جلسـت أراقب الأوضاع بعيون ثاقبة، الكرسي الذي قصدته كان آخر كرسي، بجانبه كرسي و أمامه كرسيان، الكرسي الـذي كان بجانبـي لم يجلس عليه أحـد أمّا أمامي، في الكرسـي الأول كان يجلس شـاب كفيـف، توضح لي ذلـك مـن طريقـة نظـره، فحينما جلسـت استشـعر أنفه وعيناه لم تتحركا ثم قال للذي يجلس بجانبه، المشغول بالقراءة.

-ما هذه الرائحة الكريهة، هل نحن في مزبلة؟

رفع الرجل رأسـه مستفسـراً و ناظراً إلى ما يحيطه من روائح و أشـخاص ثم أعاد نظره إلى الكتاب قائلاً في سرٍ ولكنني سمعته

-بعض الروائح السيئة ليست سيئة.

عاد يقول الكفيف في انفعال

-ولكن لا أستطيع تحمل مثل هذه الروائح.

أقفـل القـارئ كتابه مدركاً أن الحوار سـيأخذ وقتاً ثـم قال بهدوء -أنا أتحمل الروائح وأنت لا تتحملها، أنا لا أستطيع اغلاق عيوني كي لا ترى.

أعتقد الكفيـف أن المتحدث يهينه ولكن لم يغضب

بل تشبث بما يعتقده

-وأنا أتحمل من يهينني والله هو الله.

علم القارئ أن المستمع الكفيف أبسط من أن يناقش فأجبر على أن يفكّ عقدة الظن

-من يهينك و يستهزئ بك إنما يفعل بنفسه ذلك لا بك

غيّر طريقة جلوسه واقترب من الكفيف وأكمل كلامه.

-الله أبصرك و أخذ عيوننا فلتفرح بذلك فأنت في أفضل نعمة واشكره في قيامك وسجودك.

فرح الكفيف بما سمع و شكر الرب بما نعم و قام مودعا من حوله فأخذت الأيادي توصله إلى الباب وخرج.

بعد خروجه أثار القارئ فكري (لم تحول هكذا !؟) ولحظة بعد لحظة يشدّ عليّ السؤال ويبعثر ما في مخيلتي فعجزت وقلت له مباغتاً.

-لم تحولت هكذا فجأةً؟

ابتسم و مسّد جفنيه و قال:

-ما لا يفيدنا قد يفيد غيرنا..

نطقت بعفوية

-وضح لي فأنا لم أفهم، نعم، قل لي لم تحولت و لم

كل هذه الألغاز، أريد أن أفهم وبسرعة إذا أمكن.

-قلت له أن الغباء مفيد له و لكن بطريقته لا بطريقتي.

-ماذا، لم، كيف !!!! ؟

- أجبرته على تعاطي المنوم ليأكل ويشرب وينام إلى حين رحيله.

-أتستفزني؟ لم تلغز كل ما تقوله؟

-لأن بعض القضايا تلغز كي نحافظ على هدوء الحمقى

-ماذا تقصد، هل أنا أحمق؟

-لا أنت منبوذ لأنك.....

ها هو العائق الثاني يصطدم بي، أصطدم به، أراوغه، يلهث خلفي، عدت صامتاً وهو عاد قارئاً منشغلاً بذاته و مر اللقاء دون أي كلمة أخرى إلاّ بعض النظرات، عدت صامتاً وإذا بي ...

ها هنا قد بدأت المسرحية الهزلية، الفكاهة القاتلة، الكابوس الذي أكرهه، لا بل الذي يجعلني أكره كل شيء حتى نفسي.

نعست قليلاً و بعد أن خرجت من القيلولة لم أجد القارئ ولكن يمكنني القول أنّ قيلولتي لم تكن إلا

دقيقة أو أقل من ذلك فكيف خرج دون أن أدري و هل هذا حقيقي إلى حدّ أن يكون واقعياً عقلانياً ، و بينما كنت غارقاً في الأسئلة وجدت أن الباص قد وصل إلى محطتي فخرجت مسرعاً بثيابي المبللة و برائحتي الكريهة و بنفسي السوداوية و برأسي المضطرب فكريا ، خرجت و كدت أقع فلقد كان خروجي هرولةً ، هروباً من محيط يرفضني إلى محيطٍ أرفضه ، أخذت أتمعن في البيت و الوجوه و كل شيء يصل إليه نظري فأدركت بعد حينٍ إنها ليست محطتي التي أقصدها ، لم أنزعج قطّ ، فلقد كنت أحترق انتظاراً للخروج من هذا الباص الذي يكرهني و يحتقرني ولكن ما أنا بفاعل فهذه ليست محطتي و أنا ادركت كامل الادراك أنني سمعت اسم محطتي من ميكرفون الباص الالكتروني ، فكيف حدث هذا؟ هل أنا مجنونٌ مهلوس أم أن الباص ضحك علي و لكن فليكن كذلك فأنا قد خرجت ووقع المأزق ثم أنه ليس مأزقاً تماماً فأنا لديّ ما يوصلني إلى المكان الذي أريده و هو هذا الحمار ، جسدي ، ولكن ثمة ما يقلقني جداً ، أنّ هذه المحطة و هؤلاء العابرين و الشوارع و الأبنية غريبة جداً إلى حد أنني لا أصدق أنّني حقاً في منطقة في اسطنبول ، الشوارع ضيقة جداً و

البيـوت عتيقة و قديمة على ما أعتقد لألف عام، و الناس كلهـم دونما اسـتثناء يقصدون جهةً واحـدة، أما الباص قد اختفى، أين أنا ألا يجب أن أسأل نفسي ذلك فأين أنا و مـاذا أفعل، إنّ أكثر ما شـدّني هـو تعابير وجوه الناس و طريقتهم الموحّدة في المشـي، فأخذت أمشـي معهم، هكـذا، إلـى أن وصلـت إلـى سـاحة كبيـرة فتراجعت أراقبهـم سـراً، كان الجميـع يصطـفّ بانتظـام و من ثم يركـع علـى ركبتيـه، ثـم و كأنّهم مخدريـن، كانوا يركعـون أمام خشـبة مسـرح وعليـه منبر و علـى المنبر قطعة حجرٍ كبيرة، و لاحظت فئةً تهرب من الجموع فرداً فرداً باتجاه اليسـار حتى وصلوا إلى حجارة مركونة فوق بعضها البعض، فبدأ كل فرد بتسـلق هذه الحجارة و ما أن يصل إلى أعلى حجر موجود حتى يسـقط عليه حجر و يمـوت، و الأكثر غرابة أنه رغم ذلك كان كل فرد من هذه الفئة يشـرع بتسـلق الحجارة بعد أن يموت رفيقه، و هكـذا، كلما مات أحدهم صعـد الآخر ليموت أيضاً، ثـم لاحظت وجود فئة أخرى وهذه الفئـة أكثر غرابة من الفئـة التـي تحدثـت عنها، هـذه الفئة بعـد أن يخرج أحد أفرادهـا من الجموع يصرخ بأعلى صوته و هو يتصارع مع الأرض وكأنـه فـي حالة صـرع، و يظل علة هـذه الحالة

لدقائـق حتى يموت و بعض منهـم كانوا بعد نوبة الصرع يشرعون بالهرب و إذ بالحجارة تقذف عليهم، أما الجموع الراكعة للحجر الموجود على المسرح، فقد كانت على وجوههـم علامـات البسـاطة و الفرح و السـرور، هذا ما رأيتـه تماماً ثم بعد أن التقطت أنفاسـي علمت كل العلم أن كل ما رأيته كان مجرد كابوس و أنّني مازلت نائماً في الباص و أن العالم قد تشوه، كلياً أو ثلثه، و الأكثر غرابة أن الناس لا يلاحظون ذلك فأنا لوحدي أرى هذا أو يوجد مثلي بعض الأشخاص و لكن أيعقل ذلك!

ما هذا المخدر الذي لا يمكن أن يفيق منه الفرد أو ما هذه المخدرات التي يشربونها ولا يدركون أنها مخدرات إنمـا يعتقـدون كل الاعتقـاد أنّهـا مشـاعر و أفـكار و انطباعات حقيقية كل الحق و صادقة كل الصدق!،

ها أنا أستيقظ من الكابوس أي أنّه حقاً كان كابوساً يستحق مكانة الكابوس، وجدت نفسي على الكرسي نفسه الذي جلست عليه بعد أن هربت من الحشود الواقفة فـي الباص، أمـا القارئ فلم أجده و البـاص كان ممتلئاً بالبشـر، صغارٌ و كبار، نساءٌ و رجال، و أنفاسٌ تختلط بأنفاس و عيونٌ تأكل أجسادا، و الباص بصوت محركه يهزّ الأفكار و يشوشـها، و السـائق يتحدث بهاتفه، أما

أنا فقد أصابني شلل شعوري، فهذه هي أول حالة أكون فيها حينما أخرج ذيولي من الكوابيس، بقيت هكذا مشلولاً ناظراً إلى الكرسي الفارغ أمامي ثم بدأ يتسرب إلى جسدي الضعف، اشتدّ بي الضعف و الخمول حتى لم أستطع تحريك رجلي ثم بدأ ذهني يدور حول هالة صفراء بشكل منتظم حتى اقتربت منها أكثر فأكثر، هذه الهالة شوشت ذهني للحظات حتى أعادتني إلى الكابوس بطريقة واقعية أكثر، كنت أرى مجدداً كل ما يحدث وأنا أسخر بمرارة من الجموع الراكعة و الساجدة حتى غلبني النعاس المؤلم، السكون المؤلم، ساكناً وجدتني أرى مرةً أخرى كل ما يحدث و أنا أتألم بشدة مفرطاً في الإنسانية الاجتماعية حتى رأيتني من خلالهم، كنت كلهم، و كل فرد منهم، إلى أن وجدتني ذاك الحجر الموجود على المنبر الذي يكره نفسه و يشمئزّ من تكوينه الصلب و من طريقة نظر الجموع له، اشتدّ بي الوجع، صلبت تماماً وخرج ذهني من الكابوس، عدت إلى الباص و بي حمى، حمى تفرط في صلبي، و حجرٌ أراه بذهني موجوداً على صدري، يخنقني، ثم و إذا بالحجارة تسقط من سقف خيالي صنعه ذهني، تسقط على صدري قمت فجأةً بطريقةٍ عفوية، لاهثا وهاربا

مني، مما كنته على الكرسي، شدّ هذا الموقف كل الموجودين حولي، أثار فضولهم أما أنا فقد وقفت في منتصف الركاب، لكن وجدت الحجارة تقصدني من جديد و أنفاسي تتقطع و تخرج ثم و إذا بي بحركة لاإرادية أضرب شاباً ضخماً واقفاً بجانبي، ما أن صفعته حتى أتت ردة فعله سريعة و شرع يضربني بعنف حتى سقطت أرضاً و بدأت الأصوات تتعالى و التنهيدات تتمزق أشلاءً في داخلي و الناس حولي، حول رؤيتي يدورون، ولكن ما شبع الشاب فاستخدم هذه المرة قدميه رفسني في صدري و وجهي إلى أن أوقفه الركاب وخرج من الباص و شرارة الغضب تتطاير من عينيه، أخذت أستعيد إدراكي للواقع بعد غيبوبة قصيرة، بعد رحيله بدقائق استيقظت بماء دافئ رشه عليّ أحدهم، قمت ببطء شديد أمسح دماء فمي ممسكاً بالحديد الموجود تحت نوافذ الباص، ساعدني في ذلك أحد الشبان ثم ابتعد عني بعد أن عجز عن مقاومة الرائحة الكريهة المنبعثة مني، استعدت نشاطي الضعيف شيئاً فشيئاً ثم فتحت عيني على الوضع فرأيت الكدمات السوداء على وجهي من خلال النافذة و الدم الذي تجمّع حول عيني و شعري المنكوش و ثيابي المهترئة المشقوقة، بدأ

الصداع يفتكّ برأسي و عادت الحمى من جديد تقيدني و تضعفني، أخذت أستند بطريقة مختلفة على الحديد مما أنا به من ألم و ضعف و جرح ثم قررت الجلوس على إحدى الكراسي، شرعت في جولة نظريّة، فوجدت الباص ممتلئاً أكثر من ذي قبل فاستسلمت، و هكذا مرت الدقائق في ألم و خمول شديد، ألم جسدي و نفسي، ما أن عرفت أن الكابوس سيعود حتى بدأت اقاومه منشغلا بما حولي من وجوه و ملامح، الملامح التي كانت تشمئز من رائحتي الكريهة و الأجساد التي تحاول الابتعاد عني أكثر، حينها توقف الباص عند أحد المواقف فنظرت في الشاشة، إلى المواقف التي سنتوقف عندها بعد هذا الموقف، وجدت موقفي بعد أربع مواقف، موقف بيتي لا الموقف الذي أقصده، أي أن الباص قد تجاوز الموقف الذي قصدته و عاد يدور نحو الموقف الذي صعدت إليه، أي نحو منزلي، و لكن هذا لم يزعجني بل أفرحني قليلاً فكل ما أرجوه الآن هو الخروج من هنا، من هذا السجن الذي يتغوّط في قلبي، من نظرة الركاب، من اعتقادهم أنني نكرة، مسخ من مسوخ صنعته الجينات بهيكلٍ و تكوينٍ خاطئ و مزعج و مهين للطبيعة، فها أنا كلي مسخ، أي أني أنا أيضاً أراني كذلك، فأين أنت يا

منزلي؟ ها هنا لن أتعمق في التحليل لنعد إلى القصة، بعد أن أدركت أنني سأخرج بعد ربع ساعة من الآن استعدت قليلاً نشاطي، قليلاً يكفيني لأقاوم كل شيء حدث و سيحدث حتى الخروج، حتى لو صرت جنازةً في هذا الباص فيكفيني أنني ملكت أملاً يخدعني حتى أقاوم هذه اللحظات السوداء البائسة ولكن ما حدث معي بعد ذلك شلّني، الموقف الذي وقف عنده الباص دخل منه شرطي في ثيابه المدنية ولكن عرفت أنه شرطي فالمعلول يعرف علته و الخائف يعرف خوفه، يدركه بكل مشاعره، دخل هذا بخطواته الثقيلة و بنظراته الفاحصة للوجوه و الملامح، كل تعبيراته و حركاته و إيحاءاته تثير خوفي، تحرق وجداني و تصلب جسدي و تنمل ساقي و تجعل وجهي ليمونةً يتبخر عليها الماء و العرق، عاد الكابوس، لا بل أنا في كابوس، إنه لواقع كابوسي، حربٌ على النفس، هي هذه الحروب الأكثر عنفاً بين البشر منذ قوم هومو إلى أن تنفى البشرية من على الأرض، ها أنا ذاك الفرد الذي يمكن له أن يجمع بين النقيضين، أي أن يكون ميتاً يدرك موته، ها أنا هو الحقيقة التي لا يتقبلها المنطق الأرسطي، أنا المسخ الحقيقي الذي يدرك ذاته المشوهة المخنوقة في سجنه

الضيق، السجن الذي لا يتركك تحرك إصبعك ولا حتى جفونك، كل شيء يتصلب و ينهار مع الزمن، الكينونة تقصد الموت بكل حركة تقوم بها،

دخل بين الحشد ناظراً متفحصاً الملامح و كأنه يبحث عني، أي أن عقلي اللاواعي يقول لي أنت الشخص المقصود، هل لأنني مسخ أم لدي حب، حب لتلك الرغبة، رغبة في نشر الخير و الوقوف معه و لكن رغم ذلك أراني ضعيفاً في حضرة من يكرهون الخير، لعل القرن ينحاز إلى الشر أكثر من الخير، و لكن في الأخير قد تكون هذه من الهلوسات المثالية، أي يجب أن أؤمن باعتقادي بأنني مخطئ كي أتهرب مما أعتقده في داخلي، و كما قلت في السابق أنني يجب أن اترك عقلي في البيت حينما أنوي الخروج منه، نعم فهذا ما يجب فعله، ثم إنّ المسخ عليه فعل ذلك، أنا من هؤلاء الذين يتشوهون من التأثير السلبي لما يحدث و ما سيحدث، أو من الذين يتصارعون و يقاومون التشوّه حفاظاً على الذات ولكن أظنني من الفئة الأولى، على الأقل الآن فقط يجب أن أعتقد ذلك بكل جوارحي فهذا الخليط القذر يجب تذوقه، عليّ أدلجة ذاتي لبضع دقائق، لبضع أيام، لحياة كاملة، فهذه هي التضحية التي على كل ذات في الشرق الأوسط

تقديمها كي تتنفس، كي تكون مسخاً أنيقاً.

لا لـن أكمل القصة!، لا بل انتهت القصة حفاظاً على تشـوهاتي التـي نعتقد أنهـا طبيعية و بـكل قناعة تامة، لربمـا تقولون ما هذه القصة القصيرة التي لا تعبر إلا عن ذاتهـا كقصة مشـوهة مملـة، و لربما أنتـم صادقون بما تعتقدون ولكن لا تكونوا بكل هذه الثقة العمياء، إنها قصتي، قصة حياتي، كابوسـي، دلالاتي على تشـوهي بينكم، بين رغباتكم المتسـلطة علـى ذاتي، وكل ما تعتقدونـه صائبـاً في القصـة هو محض هراء رومنسـي، لقد اتعبتكم معـي اليوم بهذه القصة التي ظللت أكتبها لعـام كامل، عـام من تصور ذاك الكابـوس الذي رأيته فـي الباص، مـن تصـور ذاك الكابـوس الحقيقي الذي قصصت ثلثه كي يُنشـر بهدوء، ولا أكون اسماً يتداوله القرّاء إنما قصة مرمية في قبو المكتبة، ألا يحق لي الآن القول أنّني المحدث عن إرادة التشوه كما حدثكم قبلي بعـض الثرثارين عن إرادة القوة و اليأس.... الخ، إنه الأدب الـذي يكتب في الشـرق الأوسـط، الأدب الذي يتحدث عن مسـوخ، عن أحداث مشـوهة، عن وقائع ناقصة، عن حقائـق مختبئة تحت سـرير الله، عن منطـق ضائع، عن رغبـة الخير التـي صارت قناعاً يُتداول بيـن الجميع، بين

جميع الخنازير، عن ماذا أيضاً، نعم فلأنطق الآن و أمامكم جميعاً، لقد رفضت أن أكون نبياً، أن أكون إنساناً، أن أكون شخصاً تعتقدون أنه يحمل في قلبه جميع الفضائل، لقد هزمت شر هزيمة، خسرت، صرت مسخكم الذي تثرثرون عنه عندما تأكلون و تشربون و تمارسون الجنس، صرت منكم و الآن و في ما تبقى من ما أعتقده حياة عليّ تدمير ما أعتقده، جميع رغباتي، و إلى ذاك الوقت سأظل ذاك الرجل و كما قلت لكم من أول صفحة .

ثقيلٌ أنا، أكثر من اعتقادي بذلك، أكثر من كوني حقيقة ثقيلة على نفسي، أكثر من الوهم المتراكم في عقلي، مثلما لا أعتقد أنها مبالغة مغفلة لذا عليّ الاعتراف بذلك على مدة اليوم كله، كلما أفعل شيئاً أو أفكر في فعل شيء أو لا أفعل شيئاً أو لا أفكر في فعل شيء، و أنا ساكن بكل هذا الفراغ الممتلئ بالفراغ أكون ثقيلاً، هذا لو تيقّنت بأنني أتأمل في الفراغ طبعاً لعدم وجود يقين بأني على معرفة حقيقية تدفعني لأتأمل بواقعية، و لكن رغم كل هذا أو كل هذا يدعم بطريقة لأكون ثقيلاً لدرجة أفرط فيها حتى أصل إلى مستوى سريالي بعيد كل البعد عن الوجود، أي أن أتعالى على العقل

و منطقـه و تفكيـره، قد تعتبرون ذلك من السفسـطة و لكـن أنا أعتبره الاتحـاد مع اللاوجود و تحرر خيالي عن أوتـاد الزمكان و الوجود ولكـن رغم ذلك أظل ثقيلاً أو كل هذا يجعلني كذلك.....

* * *

على حافة البحر

بثيـابٍ مهترئة ، بجسـدٍ هزيل صاح للفتـاة التي كانت جالسة فوق التلّة المطلة على البحر

- أنتِ خضراء فلم هذه الوحدة القاتلة؟

جلـس بجانبهـا ناظراً نحو البحر ولونـه المضيء ، بعد هنيهة من الصمت عاد قائلاً

- الحيـاة ، امتلاكها صعب جداً ، أو ربما مسـتحيل ، قد تجدين و تجدين و لكن كلهم أو جلّهم تعساء

نطقت بعد أن أثارها الحديث

-أين السعادة إذاً؟

-حسـنا ، بما أنّنا في هدوء فلنتحـدث قليلاً ، و أول ما يجب أن تعلميه هو أن سـؤالك خاطـئ جداً ، كان عليك طرق الصدى بسـؤال آخـر ، مثلاً (كيف تكـون الحياة) سـأجيبك ، إننـا مقيدون بالمـادة ، بالغرائـز ، بالدوافع التـي غرسـت فينـا منـذ الصغر ، قـد تلاحظيـن أنّ كل التعسـاء هم الذين تم اغتصابهم في طفولتهم أو شـبابهم بطرق و أسـاليب مختلفة ، قد تقوليـن (أيجب أن نغتصب

كي نبحث عن الحياة) ليس مهماً هذا السؤال أكثر من (كيف تكون الحياة)، إننا نتنفس و نأكل و نشرب و نمارس الجنس و نطبخ و نتزوج... الخ، التعيس يفعل كل ذلك و السعيد أيضاً، إذا أين تكمن الحياة؟

-أين...، أخبرني...!!!

- الحياة لكلمة ذات غواية دفينة، ذات متاهات و غابات كثيفة، و لا يمكننا التعبير أو التعريف عنها بكلها و لكن يمكننا أن نجد حياتنا الخاصة، الذاتي، و ها هنا نبدأ بالسير نحوها، الذات.

- لم أفهم...

- نحن نمتلك ذواتاً علينا أن نوضحها لنا بأساليب فأنا مثلاً أكتب، أجعل الورق مرآة لذاتي و لربما أنتِ أيضاً تفعلين شيئاً ما!؟

-نعم أنا أرقص، أحرّك أوراقي..

-إذا أنت تبحثين عن الحياة، أو توضحين ذاتك لذاتك، و هنا السؤال الثاني، مع من ترقصين؟

احمرّ وجهها ثم تكلّمت

-أرقص أمام المرآة.

-إذا هذه طريقتك في رؤية ذاتك كي تشعرين

بالحياة، جيد، أنا أيضاً أكتب لذاتي ولا أنشر، إذ أشعر بالقلق على ذاتي فلربما تعرفين أن الفئة التي تشاركنا أساليب اقترابنا من الذات يشتركون في تكوين ذواتنا، بنظراتهم و مشاعرهم التي يرون بها طريقتنا، فأخاف أن أنشر عملاً لي و يقرأه المراهقون فأضيّع ذاتي و أنت إذا رقصت أمام البحر سيتموج صفاءً و إذا رقصت أمام النار فستلتهب و لربما تأكلك.

سمع صوت بائع متجول فأشار له

- لطفك يا سيد،

و كان أمام البائع تلّة عليه أن يصعدها كي يصل إليهما، قالت له :

-لا تتعبه في صعود التلّة

أجاب:

-هذه هي الرأسمالية

سكب لهما البائع كأسي شاي، فأخرج من جيبه مالاً و مده إليه، شكره البائع ثم نزل

-أعطيتَه ضعف المبلغ..

-و هذه هي الإنسانية..

عادت تعيد الرجل إلى الحديث

- ألا تعلم أننا نقصد طرقاً كثيرة ونندم، لا بل تظلّ تراجيديا هذه الطرق ملتصقة بنا طوال العمر

-كلامكِ صحيح و لكن دون ذلك لن تشكّي بوجود ذاتٍ تمتلكينها، إننا تعساء لسببين، أو لربما معظم البشرية كذلك، الأول هو الماضي و الثاني هو المستقبل، نمدهما كل القيمة و العاطفة و ننسى الحاضر و الحاضر هو رحم الحياة، إذ الحياة هي هذه اللحظة التي نعيشها الآن فالماضي بذهابه مات والمستقبل ببعده ضائع دائماً..

قالت الفتاة بهستيريا

-ربما ...ربما... ربما

فوقهما بقليل شخص ما قال بغرابة للبائع المتجول ذاك، الذي مرّ بجانبه

-ما به هذا المجنون يتحدث مع هذه الشجرة؟

- هذا الرجل فقد كل ارتباطاته بالحياة، يأتي كل يوم ليتحدث مع أوراق و أغصان هذه الشجرة، كل يوم، و اليوم الذي لن أجده فيه هنا فحتماً سيكون ميتاً...

* * *

الطارق

كنت أطرق الباب بعنف، بعنف قاتل، لم أكن أسمع صوتـه كي أكفّ عن عمليـة التخلص من بعض الضجر فـي الطرق علـى الباب بهذه الطريقـة الوديعة ولكن و يا ليتـه لم يفتح البـاب، لم يفتحه أبداً، إلـى آخر لحظة من حياتـي، إلـى ما لانهاية، هذا ما كنـت أرغب فيه فعلاً، بل كنت سـأطبّق كل ما أقولـه الآن بالحرف و بالفعل، كنت سأطرق الباب إلى أن أموت، إلى أن يجيء صديقي المـوت، ولكنه قـام بذلك هذا الأحمـق، كم أزعجني ذلـك، كم قهرني ما فعله صديقـي حينما فتح الباب، و لـم يذهـب من الزمن إلا عشـر دقائق، أتفهمـون ذلك، يا إلهـي، مـا هذا الألـم، ما كان يجب فتح البـاب و تدمير كل أحلامـي، بـل تدميـر حياتي، و لكنني و من شـدة غضبي ضربت وجهه بقسوة شديدة

-لماذا فتحت الباب؟

-لأنّـك تدقـه لأفتحـه أم مـاذا، لـم ضربتنـي؟، ثم ألا تعـرف كم هـي السـاعة الآن إنها العاشـرة و هذا موعد النوم، فلتفهم، لقد تأخر الوقت، فإذا لديك سـبب مقنع

لمجيئك و إلا سأطردك شرّ طردة، أنت تخالف القوانين، أنت لست أخلاقياً بما تفعله، هل تعلم ذلك؟، قل، تفوه بما تريده بسرعة، المدينة نائمة و أنت يجب أن تنام، نعم يجب عليك ذلك!

-نعم، نعم، أفهم يا.....، لدي، لدي الكثير لأقوله و لتفهمه، لديّ شيء مهم و عاجل، لدي مشكلة، بل لديّ دودة تزحف في عقلي و لا تهدأ، فلتفهمني يا.....، فلنذهب إلى غرفتك و بسرعة...

استعجلت في أخذه إلى غرفته و أغلقت باب غرفته و ورائي وكأنّ البيت بيتي و كأنّ الغرفة غرفتي ثم أجلسته و جلست بجانبه و قلت

-يا صديقي، يا عزيزي، لديّ مشكلة و يجب أن يكون عندك الحل و إلا أنت ستكون ميتاً بعد دقائق، لا لأني سأفعل ذلك بقصد بل لأنني لن أستطيع مقاومة رغبة القتل، أي أنك ستموت، الآن نحن في غرفتك، في بيتك، انتظر قليلاً... (قمت و أطفئت الضوء) هكذا أفضل كي لا تفكر في شيء أبداً سوى الحل الذي سيكون في داخل دماغك، عقلك هذا، الجميل، فلترسل بسرعة الضوء كل ما أقوله إلى منطقة الفهم، يجب أن تفهم بسرعة عجيبة، أنا سأكون هادئاً، قليلاً،

نعم، يجب ذلك، بكل قوتي سـأكون كذلك، إذاً، إذاً فلنبدأ، أول شـرط عليك أن تعرف شرطي، عليك معرفة ماهيـة ما سـأقوله، أي مـا خلف كلماتي، هـذا العميق الـذي يختبـئ خلف المعانـي، أي اللامفهـوم الذي عليك فهمه، أنا بائس، جداً جداً، لدرجة لن تفهمها و عليك أن تفهمهـا كما أني ضجر و عنيف في غضبي، بي و بكل مـا أفكر فيـه، و لكن هذه بعض التأثيـرات الجانبية، كمـا يكـون ذلك في الأدويـة الطبية... الـخ، الخ، و أنا أشـعر بالاشمئزاز و القرف و الألم، هذا الألم الذي ولدنا به و سـنذهب إليه، مؤكد أنّك تفهم ذلك، ها أنا أقترب قليلاً، هيا قل شـيئاً لنقترب أكثر مما سـأقوله لك، من تلك القنبلة الصامتة، من تلك.....

-مـا بـك يا رجـل، كنـت محترمـاً و خلوقـاً في كل حياتك، كم كنت، الرجل الأعلى و الأسـمى لكل من يعرفـك، حتـى أنا كنت منبهراً بعظمتـك الاخلاقية، ما الذي حدث؟

-نعـم أنت بدأت تفهم قليـلاً، كلامك يجعلني أقترب منه، نعم، يجب ذلك، هي كذلك، بنظرك و بنظر كل من تفكر به و أفكر فيه، ولكن ليست كذلك بالنسبة لـي، لقد، لقد مللت و ضجرت و تعبت تعباً ثقيلاً مزعجاً

من كل شيء، حتى أنني الآن لا أعتقد أنني أعيش بل لم اشعر يوماً بأني أعيش و أنّ هذه هي الحياة، تكلم، تكلم أكثر، فلنقترب أكثر، أكثر....

-لا أعرف ماذا يجب أن أقول لك، أنا صادق بما أقوله.

-صديقي أريد محفزاً، أريد ضوءً، فلنذهب باتجاهه.

-فلتهدأ قليلاً ريثما أسخن الماء لنشرب الشاي لربما قد نصل و نحصل على ما نريده.

-نعم، لقد فهمت ذلك، لقد فكرت بذلك، جعلتني أفكر بذلك، هيا قم و أحضر بعض الصحون و الكؤوس لأكسّرها، هيا يا رجل

عاد ومعه بعض ما ذكرته و بدأت بما فكرت به ثم جلست مرةً أخرى بجانبه

-لا، لم ينفع...

-يكفي يا رجل لقد جعلت كل من في البيت ينزعج منك، ها، اسمع، استيقظ الجميع، كل عائلتي

-نعم ها نحن نقترب، هيا أحضر الجميع، هذا قرار يجب أن تلتزم به فوراً قبل أن يجنّ جنوني أكثر.

حضر الجميع وهم في خوفٍ مطبق على ملامحهم إلى

حد أن النعاس طُرد بعنف من جفونهم

-أيها السادة الكرام، يا عائلة صديقي الجميلة، أهلاً بكم في حفلة البحث و التعمق، عن ماذا يا رفاق؟ عن ماذا يا سيدتي الأم؟، و هذا ما يجب أن نبحث عنه، نعم هذا هو، فلتجلسوا جميعاً بهدوء لتشرعوا في العمل على الفور، هيا يا.....، و لأكون واضحاً بشكل جميل معكم فمن حسن حظكم و من طيبة قلبي أن أخبركم أنني سأقتل صديقي الجميل و الطيب، هذا الجالس الآن في غرفته البسيطة، في حال لم نصل إلى ما أدعوكم إليه، أعتقد أنكم تفهمون ذلك بكل لطف، شكراً لكم، لاستماعكم الذي لن أنساه ما حييت، و الآن لنذهب إلى القصة، القصة التي حدثت في اللاحدث، لقد كنت جالساً أفعل كل ما أفعله كل يوم، ما تعرفونه، في هذا اليوم المشرق قمت كما هو في كل يوم في الساعة التاسعة صباحاً، ثم بعد ربع ساعة من بعض الصراع مع النعاس خرجت مسرعاً (كما هو في كل يوم) أوزّع الابتسامات على الجيران و العائلة الجميلة و أقوم بكل فعل طيب و أخلاقي، الاخلاق التي تعلمناها من كل من عرفناهم في هذه البلدة البديعة، و ما هو...

الـخ، ثـم بعد كل مـا هو روتينـي و جميـل و طيب عدت إلـى البيـت، و إلى غرفتي طبعـاً، و ما أن مـرت لحظات حتّى شـعرت بشيء غريب، شيء لم أشـعر به من قبل ولا أعرفـه ولم أعرفه حتـى الآن، و لكن فلنعـد قليلاً، إلى حياتي الجميلة الطيبة البديعة المشـرقة البسيطة المرحة ال.....، آه، هـا هي، إنها تتحـرك داخل جمجمتي، إنها تزحف ببطء شـديد، بشـكل مستفز و مزعج للغاية، ألا تشعرون بذلك يا لطفاء، يا أيها الرائعون؟، أما شعرتم به من قبل؟ أما دخل في رأسكم شكٌ أن هناك شيء معقد، شيء لم تشعروا به من قبل، شيء لم تعرفونه من قبل، شيء غريب عن كل ما نعرفه و نمارسه و نتفنن فيه بطرق فنيّة راقية، بأخلاقنا العالية؟، ها قد شرحت كل شيء، كل التفاصيل، كل ما أشـعر بـه الآن و لكن أعود و أكرّر أنّ كل هـذا ليـس إلاّ التأثيـرات الجانبية للـدودة ال..... التي تسـخر عليّ من داخل جمجمتي، و ستسخر عليكم حين أقـوم أنا و بكامل أخلاقـي المجيدة بقتل طفلكم البريء البسـيط و لن أتردد في ذلك و ليس لدي أية حيرة أو شك في ذلك، أي أنّني قد حكمت على ابنكم بعقابه ال.....، هـذا الطفل الصديق الجالس أمامكم الآن، و يا

للأسـف على حياتكم من بعده، إذاً فلتفهموا أيضاً أنني أشعر بالأسف على حياتي الآن، بل على كل حياتي، منذ ولدت إلى اللحظة التي أقول فيها هذه الكلمة و إلى كل الزمـن الملتصق بغرابة بهذه الكلمات اللطيفة التي أتفوه بهـا علـى عجل لكم أيهـا الرائعون، ها قد مـرّت، نعم، إنّ القـرار قد بـدأ يقترب مـن التنفيـذ، فلتتخيلوا معي، كل مـا يحدث الآن في مخيلتي البسـيطة، جنودٌ يجرّون ابنكـم إلى منصة الاعدام، الجنود مجاز كل ما أشـعر به، و ها قد وقف صديقي على الكرسي و ها هو الحبل قـد التفّ بلطف و بحب حـول عنقه الجميل البائس، و ها أنا قد ضربت الكرسي بقدمي بكل عنف لطيف، إذاً، إذاً يا أحبة لقد تخيلتم كل ذلك في خيالكم العبقري إذا فلنعـد إلى الواقع الأخلاقـي ال.....، و كما تعرفون أنني أحمل سكيناً لأنني أتيت و أنا أضع السكين في جيبي، أي أنّنـي قد خططت لكل ذلك منـذ أن كنت في البيت أصارع نفسـي، هـا قد ترون ذلك، إنني أخرج السـكين من جيبي، فلتتصدموا الآن.....

قتلته و تراجعت ببطء إلى جانب صديقي وهو يحتضر

-لقد قلت، لقد فعلت، لقد قلت، لقد فعلت، هذه هي

الحقيقة، هذه هي الحياة اللعينة الحقيرة التافهة البائسة الخنزيرة.

صرخت بأعلى صوتي:

-نعم لقد وصلت إلى الحقيقة، لقد مسكت الدودة، هه، هذه هي.

* * *

صباح الدمع

دومًا ما أقع في مكائد المواقف المؤثرة فلا أحد يعرف كم اصبع للقلب احترق فوق نار المعنى ولا كم مرةً غرقت متجهًا نحو القعر وأنا مستسلمٌ للمياه وهي تتسرب إليَّ، الأوكسجين يصير ثقيلًا على رئتي الوعي حينما يشتعل الموقف في ممر الزمن تحت جبروت المكان، صدفٌ تجرّ أذيال المشاهد السوداء و العبث مخرجٌ متمرّس.

نهضت كسولًا من سرير النوم وأنا أحاول رؤية الساعة بشكلٍ فصيح، كانت الساعة تدق أجراس الذهاب إلى العمل، كما هو مروّضٌ كل يوم لينتشلني من قيود السرير، ارتديت ثيابي المهترئة، التيً تفوح منها رائحة العرق وروائح أخرى تصلح لصناعة قنبلةٍ كيماوية، قصدت بيت المختار ودفعت دينه الأزليّ ثمّ غسلت الوجه والملامح من غبار الموت و خرجت من البيت العتيق وأنا أدندن بعض الأغاني الفلكلورية بشكلٍ متقطع دونما وضوح، فهذه مصيبة الذاكرة الصباحية، و هذه حالتي في كل صباح و لأنني عنيدٌ تورّطت في التفكير

بملامح الأغاني علّني أعيد أسطورةً كاملة إلى مخيلتي وهذا ما جعلني أترك الأقدام تمشي لوحدها بقدرة العقل الباطني، فركت أذن آخر مقطعٍ من أغنية و عدت إليَّ لأجدني قد تجاوزت مكان العمل بعدّة شوارع طويلة، لم أفكّر في الخيارات المتاحة و أسرعت راكضًا إلى العمل و أنفاسي تتسابق في مرثون الصوت، وصلت ثم دخلت كالبهلوان وهو خارجٌ من عرضٍ نفذت فيه كل طاقته، نظر إليّ مدير العمل فأبعدت عينيّ عنه ولكن الخطيئة هنا يجب أن تقطع رأسها، فإذا بصوته يهزّ طبلة أذني بقسوة :

-لا تتأخّر مرةً أخرى أيها اللعين....

انسدلت جفوني لاإراديًا ولكنني أمسكتني بقوةٍ و مشيت بخطواتٍ ثقيلة نحو عملي وأنا أحاول بلع لعابي بصعوبة ....

مرّت الدقائق و الساعات و أنا منكبٌ على العمل دون إدراك لما يحصل حولي.....

ولكن بعض القهقهات أخذت انتباهي إلى شفاه ضاحكة، تضحك بعفويةٍ تامة

كانوا يضحكون على رجلٍ ذي بشرةٍ سوداء و عينان

كبيرتان و جسدٍ ضخم، كان الرجل غريب اللغة و الأصل بينهم، و كأني أراه يصارع سقف المنفى بصمته أو كان يحيي مدينة الصمت من ركام الكلام.

توقفت عن العمل رغمًا عني و راقبت حركاته و ملامحه و إيحاءاته، مرّت دقيقة كاملة اشتدّ فيها صوت الضحك، كان أحدهم ينادي (زنجييي)، و كأنه يلقي نشيدًا وطنيّا عن وطنٍ في مستنقع، مرّت دقيقة أخرى، قلت لنفسي أنه لن يخرج من قبو الصمت و لوهلة كنت سأعود للعمل و إذا بعينيه تغرقان في الدمع، كانتا تغرقان ببطء و كانت القيامة تقترب من جسدي و ترسل أولى الرعود بعبث، فغيّرت مسرعًا اتجاه الرؤية كي لا أصطدم بجبلٍ أكبر ولكن العاطفة أخذتني مرةً أخرى إليه و هي تتعرّق راكضة في غابات الصنوبر، كان الرجل لازال واقفًا بقامته الطويلة يتلو آيات الصمت و يمسك القلب من تعرّجات الطريق و يملأ رئة الصمود بأطنان الفقر، طال صمته و طالت مواعيد وعود الإنسانية و لكنّه فاجئ المشهد بارتجال الخلجة، وضع يده السوداء كقلوب البشر في جيبه المهترئ، ظننته سيخرج سكينا ليسلخ جلود الكائنات الضاحكة، ظننته سيخرج قلبه الذي وقع في جيبه و يقول: هذا

قلبي يا ملاعين.. ظننته سيخرج شفرةً و يقطع طرق دمه المتدفق من قلبه الأبيض، ولكنّه كسر جبال الظنون بكلتا قلبيه (قلبه و قلب الإنسانية)، أخرج صورةً صغيرةً و شرع يحملق فيها و يبعث الآهات إلى السماء، زلزلتني قشعريرةً بقوة ٧ ريختر، وقفت كل عظامي استقامًا، خلجاتٌ تخرج من رحم القلب، فنطفة المشهد لم تستغرق إلا ثواني فقط لتنضج و تصل إلى بويضات القلب، وجدتني أركض، ألهث، أروّض الهواء داخلًا إلى مشهده، ليست أكثر من رمشة عين إلا و وجدتني أحضنه و أبكي.

* * *

العاجز و العذارى

يوم الاثنين، يومي المفضل للتلذذ بنكهة القوة والثروة أمام أعين جميع موظفي شركتي الخاصة. دخلت الباب الرئيسي لشركتي وأنا ألصق جبيني بالسماء وعيناي تراقبان أي خللٍ أو كسل بسيط من أي موظفٍ لأتلذذ بإهانته وشتمه. لم أجد أي ضرر في الخدمة، فتح لي عاملٌ البوابة التي أصل من خلالها إلى ذروة اللذة، باب المصعد، صعدت نحو طابقي الأخير. فتح لي موظفٌ آخرٌ باب المصعد، فقصدت غرفتي مارًا بين الكثير من الموظفين. ولي عادة قلتها لنائبي «نمر» كي يخبر الجميع عنها، وهي أن يقف الموظفون باستقامةٍ وبهدوءٍ حينما أصل لخطوتي الثالثة، خطوت خطوتي الثالثة فوقف الجميع بانتظام من على حواسيبهم، لاحظت تأخر أحدهم ثانية واحدة، فقصدته ماشيًا بكل قوة، وصلت إليه وأخفضت نظارتي الشمسية بحركة بسيطة من أصابعي، ففهم قصدي. وبينما كنت أخطو خطواتي الأخيرة نحو غرفتي، نظرت خلفي وجدته قد فر نحو بيته مطرودًا. ابتسمت مستمتعًا وأنا أدخل إلى

غرفتي المزينة بالذهب واللوحات القيمة. كان نائبي «نمر» يمشي خلفي بخطواتٍ قصيرةٍ وحينما أضع مؤخرتي على الكرسي الذهبي يجب عليه أن يكون ناطقًا بتحية الصباح وفي يده مستندات التحويلات المالية. فعل كما هو مطلوبٌ منه ووضع المستندات على الطاولة التي تشبه عرش الرؤساء، دققت بالمستندات وهو واقفٌ أمامي، يتنفس دون صوت خشية إثارة غضبي. أكملت التدقيق وقلت له بصوتٍ خافت:

-اليوم الاثنين..

-حسناً سيدي «غرير».

دنا من المستندات وخرج من الغرفة دون صوت وكأنه يمشي على الريح. مرّت دقيقة، ثلاثة، خمسة، تسعة.. نظرت إلى ساعتي وأنا أريد منه أن يتأخر ثانيةً واحدة فقط لأوبخه بأرذل الكلمات، وصل عقرب الثواني إلى حدّه المطلوب فدخل فورًا ومعه فتاةٌ شقراء، بعينين خضراوين وشفتين لامعتين كلون العسل، وساقين نحيلتين ملتصقتين بالبنطال، بشعرٍ أصفر كالذهب ووجهٍ مدور كقرص القمر، وبشخصيةٍ مصنوعةٍ بقالب الكمال ونهدين كبيرين متكورين صارخين

بالشـهوة، بمؤخرةٍ بارزةٍ ومدورة بقوة كمؤخرة سيارتي، وبخصر نحيل.. مشـت نحوي بطريقةٍ أنثوية خاصة جعلت شلالاً من اللعاب يسيل من طرف فمي!

-صباح الخير سيدي الجميل «غرير».

-صباح المتعة يا جميلتي.

قبلتني وجلست على ساقي، فرغبت بقبلةٍ أخرى. دنوت من شفتيها وأخذت لذة أخرى من مملكة المتعة.

-فلندخل غرفتك السرية يا بطلي.

-ليس الآن، إنما بعد قليل.

ولكن هذه ليسـت متعتي الأفضـل، إنما هي لحظات وتدخل متعتي الأشهى. مرت لحظات وأنا أتفحص تفاصيل جسدها من أخمص قدمها إلى أعلى رأسها، فدخل نائبي ومعه ثلـة من الفقراء الذين يطالبون بفرص عمل، وكما هـو متفق بيني وبيـن نائبي «نمر» بأن نتـرك الفقراء حتى يومـي المفضل. دخلـوا وثيابهم مهترئـة، رائحتهم عفنة، ووجوههـم مسـودة، رؤوسـهم لامعـة، وملامحهـم توحي بالضعف والعجز والجبـن. اصطفوا خلف بعضهم البعض كالعبيد، اقترب الأول نحوي وقال بصوتٍ متقطع:

-مرحبًا سـيدي، جئت أطلب منك عمـلاً فلدي أطفالٌ

صغار.

إستدرت بكرسيي المتحرك وقلت بقسوة:

-ألم تتعلم الاحترام أيها الأصلع الخرف، قل بعد إذنك وإلا رميتك من النافذة لتسقط أشلاءً على الأرض.

رد علي بخوفٍ بينما كنت أزداد متعةً:

-أعتذر منك سيدي، أطلب السماح والمغفرة فأنا عبدك الفقير.

رفعت صوتي أكثر من ذي قبل

-تبًا لك ولأطفالك المقززين أيها اللعين، ارحل من هنا هيا.

عاد أدراجه فتقدم الآخر وقال وهو يرتجف خوفًا وكأنه يرى كابوساً ولا يستطيع الخروج منه:

-سيدي العظيم، بعد إذنك، أريد أن أعمل عندك.

لاحظت من تفاصيل ملامحه أنه فقيرٌ، وأنه قد يبيع أعضاءه مقابل المال. حركت سبابتي ليقترب مني وقلت بسخرية:

-تعال لتلعق حذائي أيها اللعين.

ذُهل بهذا الأمر الذي يجب أن يلبى وإلا سيندم! تحرك من مكان وقوفه نحوي وكأنه فنجان يهتز بين كفيَّ.

ركع وأخرج لسانه، أخفض رأسه باتجاه حذائي ببطء، إلى أن وصل ولعقه. قلت للشقراء وأنا أزداد نشوةً كترابٍ يمتص الماء دون شبع:

-هكذا يجب أن نعامل الفقراء الفاشلين.

ابتسمت بالقبول ومررت كفها الأيمن نحو صدري وبدأت تفضّ القميص زرًا زرًا، وقالت برقة:

-هيا بنا حبيبي..

حركت كفي موضحًا للجميع بالخروج. خرج الجميع خافضين رؤوسهم الفارغة، واضعين أيديهم في جيوبهم المثقوبة، آخذين معهم رائحتهم النتنة. قلت لنائبي «نمر» الواقف أمامي:

-أقفل الباب بالمفتاح خلفك.

فخرج، وبعد أن تأكدت من صوت المفتاح وهو يدور في فتحة القفل، نهضت ماسكًا مؤخرة الشقراء، متوجهًا نحو الغرفة السرية، تاركًا خلفي القميص. فإذ بهاتفي الجوال يرن ويرن، أخرجته من جيبي فرأيت اسم ابنتي الكبيرة. نبهت الشقراء بأن تصمت، وفتحت المكالمة..

-أهلًا ابنتي ياسمين، كيف حالك؟

-بخير أبي، أين أنت؟

-في الشركة، لدي عمل، لا تخافي لم أنسَ موعد النزهة.

-جيد، لقد سمعت قبل قليل نبأ مزعجًا..

-ماذا هناك؟ هل حدث شيءٌ ما لرولا أو لغارديا؟

-لا، هما بخير، ولكن بعض القنوات تنبه بحدوث زلزالٍ في المدينة.

-لا تخافي يا ابنتي فمعظم الأخبار كاذبة، سنتحدث لاحقًا فأنا مشغولٌ جدًا، انتبهي لنفسك حبيبتي الجميلة.

-حسنًا أبي، وداعًا.

أقفلت المكالمة ورميت الهاتف على السرير المخصص في الغرفة السرية، نظرت باتجاه الشقراء بالطريقة التي جعلت بها جميع النساء اللواتي يأتين إلى هذه الغرفة يخفن. و لي عادة ممتعة أخرى، وهي أنني قبل أن أقترب من أي أنثى أضع يديَّ حول عنقها إلى ما قبل ثانية الموت. صفعتها ووضعت يديَّ في جيدها وضغطت بقوة فبدأت تقترب ببطءٍ شديدٍ من الاختناق. كرّرت العملية ثلاث مرات وفي المرة الرابعة وضعت أصابعي في حلقها لتحمرَّ وتحمر كلون الدم، أخرجت أصابعي ورميتها على

السرير. انشغلت بي وبثيابي التي أرمي كل قطعةٍ منها في مكان. تعريت كاملًا ، اقتربت منها ووضعت ثغري على ثغرها وأنا أعرّيها من ثيابها.. قميصها الملون، بنطالها المطرز، وإذ بالمكان يهتز فجأةً، يهتز ويتحرك أكثر فأكثر وكأن شيئًا ما سقط من السماء، أو أنّ عملاقاً يكسر الصخور ليخرج من تحت الأرض. سقطت معظم اللوحات واحدة تلو الأخرى، المزهريات وقعت أرضا ، والذهب يئن خوفًا! أصابتني نوبة رعبٍ غير طبيعية ، بصراخ مفاجئ من الشقراء، لهثت نحو أقربِ زاويةٍ وأنا عارٍ من الثياب والحياة! صدر صوتٌ مرتفعٌ وكأن البناء بأكمله قد انهار. ارتفعت النسبة المئوية للذعر، بدأت أهلوس وأردّد أسماء الآلهة طالبًا الرحمة، وكأني لست أنا أنا! اهتزّ المكان أكثر كأرجوحة في وسط العاصفة. لاحظت الخطوط المتعرجة تحفر نفسها بين الجدران بصمت، أغمضت عينيَّ وقلت لنفسي «اصمد».. فتحتهما فوجدت الشقراء تتصارع مع نوبة الموت، لعابها يسيل كالماء. قلت لنفسي مرة أخرى «إن بقيت حيًا سأتغيّر!» ضاحكًا على نفسي، فالتغيير لا يقدر على فتك قوة شهوتي وقوة السلطة التي تمشي حافية القدمين في شراييني فهي تجعل الإنسان يتوهم بأنه صاحب

الكوكب. مرّت دقائق والوضع يزداد سوءًا وروحي تنجرف أكثر فأكثر نحو دوامة العجز، والأصوات تمتزج ببعضها ليكون الصوت الصادر أكثر رعبًا من أصوات الأشباح. صوتٌ آخر يخرج من رحم المعاناة، إنه صوت تشقّق البلاط الذي ينذر باقتراب الموت من الروح واقتراب سقوط مملكتي كلها! سقطت أجزاء صغيرة من السقف وللحظات سقط نصفه، سقطت أرض غرفتي بأكملها وأنا أسقط معها صارخًا للصدى..

-ليتني لعقت أحذية جميع الفقراء وخرجت معهم من الشركة..

-سيصحو، لا تخافنَ عليه.

-نتمنى ذلك يا دكتور.

-يمكنكم الجلوس هنا ريثما يستيقظ من الغيبوبة.

سمعت كلامًا وجدته غريبًا بعض الشيء، روضت الرؤية بصعوبة بين الظلام، لم أرَ بوضوح لبرهة من الزمن، ولكن صارت الرؤية قريبة من الوضوح تقريبًا. وجدتني على سرير، فوقي سقفٌ أبيض. تعمقت في تفاصيل الجدران لم أجد أي أثرٍ للشقوق، سلكت بالرؤية نحو طرف السرير وجدت بناتي يجلسن وملامحهن صفراء

بالذعـر، عيونهـن ناعسـاتٌ بالحـزن، أدركـت أن هذا المكان هو المشـفى. شعرت بالسعادة لأنني لازلت حيًا، وكأن مـاءً باردًا يجري فـي عروقي. نطقت بصعوبةٍ بالغة وبصوتٍ خافت كضوء السعادة:

-كيف حالكن يا جميلات؟

انتبهت ابنتي الأصغر «غاردينيا» ليقظتي، نهضت بقوةٍ من على الكرسي كفراشةٍ تحلق لأول مرة وقالت بشفاهٍ منفرجة:

-لقد أفاق، لقد أفاق..

حلقت بعدها «رولا»، وبعدها ابنتي الأكبر، في سماء الفرح.

رولا: أبي، أبي، لقد اشتقنا إليك.

ياسمين: حمدًا لله على سلامتك أبي.

ابتسمت لهن وقلت:

-أنا بخير جميلاتي.

أكملت حديثي بعد برهة من الزمن..

-ماذا حدث؟ وأين نحن بالضبط؟

ردت ابنتي الكبيرة بحزن فاضح:

-ما حدث هو أنَّ زلزالًا قويًا ضرب المدينة، ونحن الآن

في المدينة التي كان يفصل بينها وبين مدينتنا البحر.

قالت رولا بطريقة غريبة:

-نحن هنا منذ أسبوعين و....

قلت مسرعًا بفضول:

-وماذا؟؟؟؟

بلعت لعابي وأكملت حديثي:

-أريد منكن يا بناتي أن تخبرنني بكل ما حدث، وبالتفصيل...

ردت ابنتي الصغيرة «غاردينيا»:

-فلتسرتح قليلًا وسنتحدث لاحقًا.

نظرت بطريقتي المعتادة إليهن ففهمن بأنني أريد تفاصيل كل ما حدث. جلست ياسمين على الكرسي وملأت صدرها بالهواء النقي وقالت وهي تعصر غمامة الدمع من عينيها:

-لقد انهارت المدينة بأكملها، و... وإمبراطوريتك العظمى أيضًا، الثيلا والشركة بأكملها، ونحن هنا منذ أسبوعين، كما أنك في الغيبوبة مذ ذاك الوقت.

قذفت جملةً بغضب:

-وماذا بعد..؟

أكملت حديثها بعد أن دملت الدموع بالمنديل..

-دولتنا بدأت بتعمير المدينة وقد يستمر ذلك عاماً، لهذا استأجرنا بيتًا مفروشًا لنسكن فيه، ودفعنا مصاريف المشفى، ولم يتبقَ لدينا من المال إلا القليل والذي لا يكفي لشهر.

غيرت ملامحي بهدوءٍ وقلت:

-لا مشكلة، سأخرج من هنا وأعمل ريثما نعود إلى المدينة.

رغبت بتحريك يدي، دفعت الفكرة من عقلي إلى الأعصاب، أشبعت الرغبة قوةً، ولكن دون جدوى! كرّرت العملية بقوة أكبر من ذي قبل، ولم أستطع، قلت لنفسي «اليد تريد طاقة كبيرة». رغبت بتحريك إصبع فقط، حاولت مرارًا وتكرارًا ولكن محاولاتي كلها باءت بالفشل. وبينما كنت أشحن طاقتي لتكرار العملية قالت ابنتي الكبيرة «ياسمين»..

-أبي، هناك شيء آخر يجب أن تعرفه.

حركت رأسي استفهامًا، فقالت:

-سأنادي الدكتور.

خرجت من الغرفة وتركتني أتصارع مع الفضول في

حلبة الاستفهام.. كم هو ثقيلٌ الوقت على الزمن حين يتعلق الانتظار بالمصير، ولكن لا يعقل أن أعجز عن تحريك جسدي بسبب زلزال! ذهبت لحظاتٌ ثقيلة إلى التيه وعادت ابنتي مع الدكتور وقبل أن ألقي التحية طرقت الإشارة بجدران الفراغ..

-ماذا بي يا دكتور؟

-استرح الآن وسنتحدث لاحقًا يا سيد «غرير».

صمتت للحظةٍ فبان عليّ جدية السؤال. نظر إلي باستغراب، وطلب من بناتي مغادرة الغرفة، ففعلن ذلك. جلس على الكرسي وتحدث بجدية:

-حسناً، الزلزال كان قويًا ولكن لحسن حظك أنك سقطت من ثلاثة طوابقٍ فقط وإلا لكنت الآن ميتًا. لقد أجرينا لك عملية استغرقنا فيها يوماً ونصف، كانت العملية ناجحة لتظل واعيًا ولكن...

صمت لبرهة وأكمل قوله:

-ولكن هناك شيء يصعب تصديقه ويجب أن تعرفه، وهو أنك ستبقى مشلولًا طوال عمرك الباقي..

لمع الدمع في عيوني، تخدر وعيي في التفكير، هدم جبروتي وسلطتي ومملكتي وقوتي، قلت للدكتور:

-أغلق الباب خلفك ولا تدع أحدًا يدخل حتى الغد.

خـرج، بقيت على السـرير، وهل يمكننـي أن غادره! عـادت اللحظات السـابقة تدور في دائـرة الفكر واحدة تلـو الأخـرى، نظرت لملامحـي في مرآة الـذات، رأيتني أتسـاقط أوراقًـا بخريـف العجـز، رأيتنـي عاجـزًا عـن الحيـاة وعن أي شـيء، أهـذا مصيـري؟ ولكن، ولكن دون لكن، فأنا أسـتحق هذا المصير، أسـتحق سـحقًا بالعجـز، أسـتحق الموت حيًـا والهلاك والنفي إنسـانيًا.. فكـم كنـت وضيعًـا وحقيـرًا وسـفيهًا! أسـتحق كل الصفـات السـيئة، ولكن مـا ذنب بناتي ليقعـن معي في تيه العجز؟! ماذا فعلن في حياتهن غير الدراسة فقط، ما ذنبهن ليصبحن أيتامًا في أول عمرهن! ولربما حدث هذا الزلـزال لأنني كنت موجودًا فـي المدينة، وهل من أحدٍ آخرٍ يملك كل الصفات السيئة غيري؟! فأنا الذي كنت أهيـن الجميع، وأنا الـذي كنت أجعل الفقراء يشـعرون بكرههـم للحيـاة بأكملها في بضع لحظـات فقط، أنا الـذي كنت أشـترك في هـدم حقوق النسـاء، وأنا الذي كنت أمزق الإنسانية على عتبة المتعة، وأنا الذي أكلت أموالًا كثيرة من كثيرٍ من الموظفين. أنا كنت شيطانَ المدينـة الذي حـرف الكثير من النفوس، لهذا أسـتحق

أو ربما أكثر، ولكن لا يمكنني تصور الاستنشاق وجسدي عاجزٌ كليًا عن الحركة، كيف سأعيش وأنا عاجزٌ عن تحريك إصبع!

يا اللّٰه.. يا رب الشيطان، لقد تاب الشيطان فاغفر له يا اللّٰه... نحن الشياطين البشرية، نحن الذين خدمنا الشر أكثر من الشيطان نفسه، وها أنا من هؤلاء الشياطين على باب التوبة فاغفر لي، ولن أكرهك إن لم تغفر لي فأفعالي لا يمحوها الغفران والتوبة، ولكن أترجاك يا ربي أن تحمي بناتي من الشر فهن لا يشبهنني.

أغمضت عيوني طالبًا النوم فعادت إلي فكرة العجز و كأنها تقول لي:

«أنا أنت، أنا سأبقى صديقك الدائم، سأجعلك تلعق حذائي»

كم أن العجز قويّ! يهدم كل شيء في غضون لحظات ويلتصق بجدران النفس كسديم صلبٍ دائم أو كجسدٍ يقيد الروح من الطيران والتأمل، كم أنهً غريب الأطوار، فهذه المرة الأولى التي أرى أنه يحضن شيطانًا، كان دائمًا هاوٍ لصدور الفقراء! لم أكن أتوقع كل هذا التغيير بي، لم أتوقع سيطرة العجز علي بلحظة كنت فيها سيدًا لعرشٍ. كيف توضحت رؤيتي تجاه

كل ما يشـعر به الفقراء؟ لقد فعلت أشـياءً سيئة للفقراء وهـا أنا الآن أشـعر بكل مـا كانوا يشـعرون به. كيف تحملوا كل هذه المشـاعر الثقيلة وكيف سـأتحمل ثقل المشـاعر التي جعلتُهم يشعرون بها مع هذا العجز اللعين؟ كيف كنت؟!

* * *

ذهبـت أيـامٌ ثقيلة علـى الزمن وحان الوقـت لأخرج من المشـفى لنسـكن فـي البيـت الـذي اسـتأجرته ابنتـي الكبـرى. حملني الممرضون ووضعوني على الكرسـي المتحرك، الذي سـيصبح صديقًا أبديا لي. دفعتني ابنتي الصغيرة «غاردينيا» لنخرج من المشفى وأنا أزداد كرهًا لـي، أزداد شـعورا بأنّنـي حمـل ثقيـل على بناتـي. وصلنا إلـى البيـت، كان في منطقةٍ تشـبه القرية لبعـد البيوت عن بعضها، البيت يشـبه من الخارج البيوت المسـكونة بالمشاكل، ومن الداخل، يشبه بيوت الفراعنة وجدرانها العفـراء بالتـراب، أبـواب غرفهـا مهترئة، تفتقـر لضوء الشمس، وسـقفها متهالك. حملنني بناتي ووضعنني على سـريري الجديد الغير مريح في غرفة صغيرة. قالت ابنتي الكبيـرة لأختيهـا «اخرجـا مـن الغرفة»، وبـدأت بوضع الحفاض لي بعد أن وضعت خرطوم التبول بعضوي، وهي

تقول لي:

-لا تخجل مني يا أبي فأنا ابنتك.

انتهت من عملها ونادت أختيها لنتحدث في موضوع العيش. دخلت «غاردينيا» و «رولا» وهما ترسمان ابتسامةً كاذبة، فتحت ياسمين باب الموضوع وهي تضع كوب الماء على شفتي السفلى..

-هذه المدينة لا تفتح المجال للعمل دون هوية، وهوياتنا الآن تحت ركام الفيلا، فماذا سنفعل لنعيش حتى نعود لمدينتنا؟ وكما أن إيجار البيت سينتهي بعد عشرة أيام والمال الذي معي لا يكفي لسدِّ نفقات الطعام والماء والكهرباء، فماذا تقترح؟

فكرت مستغرقًا بضع دقائق فلم أجد حلًا، فقلت بعجز:

-لا أعلم، ولكن فلتبحثن عن أي عمل لا يحتاج لهوية، لربما تجدنه.

قالت رولا بحزن:

-لقد بحثنا منذ وصولنا ولم نجد أي عمل.

ردت ياسمين وهي تكسر الماضي بأكمله بمطرقة العجز:

-لا حلَّ غير التسول!

أصابتني رعشةٌ قوية بهذه الفكرة، كيف تتسول بناتي اللاتي كن يملكن ثروةً لا تأكلها النيران، لم أقل شيئًا فقالت رولا عوضًا عني:

-غدًا سنخرج للناس مفتوحات الأيدي.

وخرجن من غرفتي وهن يأكلن خيال الأطعمة والغنى والرفاهية بشراسة.

مرّت أربع وعشرون ساعة، عادت بناتي من الشوارع وهن يحملن يأسًا في قلوبهن الرقيقة، دخلن غرفتي ليحكين مجددًا موضوع ليلة البارحة.

صرخت ياسمين باللعنات بعد أن غسلت وجهها من غبار الشوارع..

-ألف تبًا للحياة، منذ الصباح وحتى الآن لم يعطِنا أحدٌ شيئًا، هذه المدينة لسوء حظنا فقيرة لدرجة لا تصدق، فماذا نفعل يا أبي؟

لم أحكِ، فأنا العاجز عن كل شيء، مرت دقائق صمت وكلنا نبحث بأدمغتنا عن أي حل ولكن دون جدوى.. قفزت رولا قائلةً:

-هناك شخصٌ من مدينتنا وهو الآن جارنا، فلنسأله

عن حلٍ، لربما يكون خيطًا لحلٍ ما.

قلت لها وأنا أحضن هذا الأمل بكل قواي الروحية:

-اذهبي إليه، وادعِه للضيافة.

خرجت من البيت وطرقت باب بيته وكلنا نسمع دقاتها اللطيفة. بيته كان مقابلًا لبيتنا تمامًا. مرت دقائق معدودة، أتت رولا بهذا الجار الغريب الذي كان وجهه منقوشًا بالتجاعيد وعيونه سوداء ناعسة، رأسه من الأمام أصلع ومن الخلف هنالك القليل من الشعيرات باقية. هيكله غريب بعض الشيء، فظهره كان مقوسًا وعنقه كان قصيرًا و وجهه أصفرًا كلون الليمون ونحيلًا كساق شجرة دون أغصان وأوراق، يشبه كائنًا فضائيًا بشكله هذا. دخل وخلع نعليه، ألقى التحية فنطقت التحية، جلس بعيدًا عني، لاحظت عليه الكبت الجنسي من كثرة قراءته لتفاصيل بناتي بالنظر، قطعت عليه القراءة فجأة فنظر إليّ بطريقة مقرفة..

-كيف حالك يا جار؟

رد علي بعد أن أطرق النظر مرة أخرى لابنتي ياسمين وهي خارجة من الغرفة..

-أنا بخير، وأنت كيف حالك؟

-أنا كما تشاهدني، عاجزٌ عن أي شيء بعد أن كنت قادرًا على كل شيء!

رد عليّ بطريقة استفزازية..

-لست الوحيد العاجز، فأنا أيضًا سأكون مثلك بعد أن ينتهي المال الذي ادخرته من مدينتا.

تعمّق مرة أخرى في تفاصيل بناتي، أزعجني جدًا ولكن لا يمكنني طرده فهو الأمل الوحيد الذي تعلقنا بحباله. قلت له داخلًا في الموضوع الأساسي..

-يا جاري، كما ترى، فماذا تقترح علينا، فإن صنعت لنا زورق النجاة فأنا أعدك بسفينة مال حين نعود لديارنا معًا.

غرق في أفكاره لدقائق ومن ملامحه المرسومة لاحظت عليه خبثه، قال بابتسامةٍ غريبة..

-يا جار الحلول جميعها غير نافعة، ولكن...

غرق مرة أخرى في أفكاره وعالمه الخاص فأخرجته بصوتٍ قاسٍ

-ولكن ماذا يا جار؟

رد عليّ وهو يأخذ فنجان القهوة من يد ياسمين وينظر كأسدٍ مفترس لشفاهها:

-ولكن هناك حلٌ واحد، وهو حلٌ قذر جدًا جدًا، ولا خيار لك غيره.

علمت من طريقة تحدثه أنه يخبث في كل شيء، فقلت بصوتٍ خافت:

-ما هذا الحل؟

قال لي هذا الخبيث:

-الحل أن تفتح منزل دعارة لبناتك هنا.

هاج بركان غضبي وانفجر بقوةِ ألف بركان

-أيها القذر اخرج من هنا.. هيا، هيا!

قام يخرج وهو يبتسم بعفوية تامة وقال بعد أن ضحك بصوتٍ عالٍ..

-يا جار، لا خيار آخر، فإن وافقت فأنا سأجلب لك الرجال، هكذا ستعيش.

نفخت الدخان ولعنت كل شيء فهذا ليس بحلٍ أبدًا فكيف أدنس طهارة بناتي بقبح الرجال و وحشيتهم، هؤلاء بناتي اللاتي خُلقن من الطهارة والجمال والروح.. كيفما كان الوضع صعبًا لا يمكنني جعلهنّ أدوات تفريغ لقذارة الرجال، من هذا اللعين؟! أهٍ لو أمكنني التحرك من مكاني لكسرت حنكه وفرمت جلده

وقطعت أصابعه، آهٍ لو لم أكن عاجزًا، آهٍ لو كنت غير عاهر في حياتي، آهٍ لو كنت إنسانًا.. ولكن ماذا سيفعل الندم بعد أن هدّم كل شيء، ماذا سيفعل الندم الأخرس في كهوف العجز، وماذا سأفعل وحدي وحتى دوني في هذه الشبكة الملتصقة بالحياة، أي حياةٍ هذه التي قد تُجاوزنا الإنسانية والوجدان والضمير، أي حياةٍ ستتقبلنا ونحن ضفادعٌ تصدر النقيق فقط؟! وما الموت إلا عاجزٌ أيضًا عن تبرير أفعالنا القذرة و المتوحشة. ما ذنب الأبرياء من عهرنا، ما ذنب بناتي ليقعن في فخاخ عقولنا الحادة، ما ذنبهن ليسبحن في المستنقعات.

ذهبتْ أيامٌ وبدأ الوضع يتفاقم سوءًا، المال نفد كليًا، ولم يبقَ في البيت حتى خبزًا يابسًا. صرت أسمع زقزقة عصافير بطون بناتي الطاهرات العذارى، وهن يشعرن باليأس أكثر فأكثر، وأنا العاجز عن أي شيء أحرق خديَّ بماء عيوني السائلة كالشلال. مالك البيت نبهنا باقتراب زمن الإيجار لندفع أو نرمى في الشارع، والجار اللعين لا يعطينا حتى رغيفَ خبزٍ، كي نقبل بحله القذر.

دقائق وساعات في الجحيم، أن ترى أولادك يموتون جوعًا وأنت غير قادرٍ على فعل شيءٍ لهم. وما يعرّي الحياة أكثر أنني أزعجهن وأتعبهن معي بغسلي ووضع الطعام

والمـاء فـي فمي وتغييـر ثيابي وتغيير حفاضي وتمشـيط شـعري وحتـى دمـل دموعـي ذات الفصل الشـتوي، فهي تفيض من جبـال الحزن وغيوم العجز على خدود الحياة، فما هي الطريقة للخروج من حفرة الفقر و العوز؟

بينمـا كنـت أراقـب الذبابة التـي تطير لبرهـة وتعود لتسـتقرّ على أنفي أو جبيني، أحرّك رأسـي لتطير وتعود مرة أخرى. دخلت ياسمين غرفتي وهي تصيح..

-غاردينيا في غيبوبـة الجوع، وقد تموت، فماذا نفعل يا أبي؟

حملقـت فـي وجههـا البائـس وأنـا صامـتٌ بضجيـج مشـاعري البركانية فـي داخلي، والسـؤال الذي يحقن سـمه في قلبي وهو «ماذا أفعل؟»، رفعت ياسمين من نبرة صوتها وصقلته بالقسوة:

-مـاذا نفعل يـا رجل، ابنتـك تموت وتمـوت، لا تكن صامتًا هكذا!

عـاد الدمع المثلج على قلبـي بالفيضان بغزارة، وكل حركات روحي بدأت هي أيضًا بالتخدر، بالشـلل. قالت ياسـمين وهي تدمع وتدمع وتدمع وتلعن الإنسان بدمعها،

وتخبر السماء بعجزها وتهز عرش الآلهة بحزنها وتفجر القرن والحياة بيأسها..

-لا خيار آخر يا أبي.

قالت و النحيب صوت بوق القيامة.

قلت بصعوبة و بصوتٍ منتحب..

-لاااااااااااااااااا!

خرجت من الغرفة بعد أن أغلقت الباب بقسوة وأنا لازلت أردد (لا) بصوتٍ منتحب لا يسمعه الصدى، ولا تسمعه الإنسانية، ولا يسمعه الوجدان، ولا تسمعه أذن الكون ولا تسمعه الكواكب. مرّت لحظاتٌ فدخلت رولا الغرفة وهي تبكي وتقول بصوتٍ يكاد يسمع..

-لقد فقدت ياسمين عذريتها وأنا أيضًا فقدت عذريتي.

كان الخبر كالصاعقة، كان الوقت ثقيلًا كوزن العجز، كان الزمن كالسكين، كان الفكر كالهواء، كان الهواء كالسم، كان السم كالماء، كان الماء من الجحيم، كان الجحيم مقبرة، كانت المقبرة صامتة بضجيج الآهات، كانت الآهات تتبخر نحو السماء، كانت السماء ترجف خجلًا من البشر، كان البشر أسوأ الكائنات، كانت الكائنات تختبئ

من صدى البوق، كان البوق صوت قيامة حياتنا وخيالنا وآمالنا ومستقبلنا وماضينا وحاضرنا. زلزلني الخبر وكسرني لقطع صغيرة كقطع المرايا، لم أتحدث ولم أفكر ولم أتخيل ولم أفعل شيئًا ولم أجدني ولم أجد شيئًا.

عبرت ممرات العدم وأنا أحمل اللاشيء لأصل إلى اللامكان كي لا أفعل شيئًا بعد أن تركتني على السرير، بعد أن فرمت كل شيء بأسنان اللاشعور، بعد أن وضعت القيح في رؤية الحياة بعجزي، بعد أن مزقت بكارة بناتي بلا إرادتي، بعد أن وضعت سرطانًا في قلوبهن، بعد أن رميت القدرة في مستنقع المستحيل، بعد أن ضغط عليّ المستحيل بكل قوته، بقيت في غيبوبة الصدمة لصباح اليوم التالي، الذي طلعت شمسه حارقةً تذيب وجداني ببطء..

دخل الجار غرفتي وهو يبتسم سعادةً، قال لي بحقارة

-مبارك يا جار، من اليوم سيمكنك العيش بسلام.

جلس بعد أن لمس بيده ثدي ابنتي ياسمين، وهي حافظت على هدوئها وكما حافظت أنا الآخر على هدوئي، وكأنها ليست ابنتي. عاد ليتحدث بسفاهة:

-خذي هذا الجهاز يا امرأة، وشاهدي وتعلمي أنت

وأختك لقطـات ووضعيات الجنس مـن الأفلام الإباحية، وخذي هذا المال لتشتري الطعام للجميع.

أخذته وخرجت وبدأ اللعين يخنقني بقيحه..

-بما أنني سأجلب لك الرجال فأنا سآخذ نصف المال الذي تجنيه ابنتاك.

لـم أكن موجـودًا ولم أكن مدركًا من قسـوة إدراك ما يحدث في هذه الدائرة التي نصنعها نحن البشر لغيرنا كـي نتمتـع بالوهـم ونرفـع جبيننـا عاليًا كبـرج لا يرى بالرؤية، فمن هو الكائن الذي سيتجاوز وحشية الإنسان لأخيه الإنسـان؟ والأكثر وحشيةً هو أن الآخر يعتاد على العبوديـة والذل كأنه آلـة منظمة لتقبل جميع الكدمات دون أن تنكسر، ليحب الكدمات ويتلذذ بها وقد يحارب من أجل المبادئ التي بنيت على سطح الخنوع.

مرت نصف ساعةٍ وهو يضع قوانينه على ظهر الحالة، قام وهو يقول بشراهة الشهوة..

-سأذهب لأعلّم ابنتيك كيف يمكنهما إمتاع الرجال.

خرج مـن غرفتي نحو الغرفة الأخـرى بخطوات طويلة. مـرت خمـس دقائـق وبـدأت أسـمع صـوت آهـات ابنتي ياسـمين الممزوج بصوت أنين السـرير تحتهما، وبصوت

أنفاسه الشهوانية البركانية. كدت أنفجر بالمدينة أكملها، أو ربما بالكون أكمله، ولكن من شدة حرارة ناري على مملكة خلجاتي لم أنطق حرفًا، حتى لم أغير نظرتي من النقطة التي كانت في السقف، حتى استطعت لبضع لحظات التفكير في العدم، أنا كلي جمادٌ صنع ليكون جمادًا! عاد الصوت يرتفع أكثر ولكن هذه المرة صوت ابنتي هو الأقوى حدةً، كصوت تمزق الوجدان والضمير، كصوت قنبلة نووية استقرت في قلب الوطن، كصوت باخرة تغرق في الصحراء، كصوت صراخ الإنسانية في مشهد الجريمة، كصوت القيامة، كصوت اصطدام الماء بالنار. كادت تفيق ابنتي الصغيرة النائمة بجانبي، ولكن من الجيد أن نومها عميق فهذا الصوت سنسمعه كل يوم، وكل ليلة، وكل حياتنا.. سيئن هذا الصوت داخل دماغنا، قد نسمعه في أحلامنا و كوابيسنا، سنعتاد، سنتعرى من جميع الصفات النبيلة، قد نبتسم بعد كل هذا، من يعلم، فنحن من البشر، والبشر يدمنون كل شيء، والعجز يكسّر جميع قلاع الجنون والإدراك، فمن هو الإنسان دون إدراك؟!

مرّت نصف ساعة أخرى، انقطع صوت ابنتي ياسمين،

ولكن بعد برهةٍ صدر صوتٌ آخر بالكاد يُسمع، إلا أنه ارتفع قليلًا إلى الوضوح، إنه صوت ابنتي الأخرى، رولا، صوتها الناعم الذي يبان في آهاتها الرقيقة بدأ يتغير تدريجيًا لصوتٍ كصوت احتكاك الأظافر بالجدار، بدأ يعلو ويعلو إلى أفق البعد، محطمًا جميع الحواجز الصوتية، كصوت الطاقة الكهرومغناطيسية وهي تلتصق بأعصاب وبخلايا الإنسان دون إدراك. استفرغت ابنتي رولا، سمعت، أدركت لاشعوريًا، سمعت صوت صفعات، أدركت، تخيلت مشهد وجهها وهي تتعرض للصفعات، وهي تمسك النحيب كي لا يفلت ويألم جميع ندباتنا، و هي تحافظ على الضمير بالسر، تعتني بإنسانيتها دون علمنا، تحب أناها وذاتها العليا، هي هي. مرّت دقائق أخرى وأنا أسمع صوت أقدامهم تقصد الحمام. الحمام كان مقابلَ غرفتي، لم أنظر إليهم، أغمضت عينيّ خشية اصطدامهما بعيون ابنتيَّ. بعد أن أغلقوا الباب، فتحت عينيَّ، وشاهدت مشهدًا آخرًا من زجاج الباب، لكنه غير فصيح جدًا، مشهد تغسيل بناتي لهذا الشيطان، ثانيةً، ثانيةً والمشهد يزداد قوةً. توقف الزمن، رأيت ابنتيَّ يغسلن جسمه الغريب كله، مقطعًا مقطعًا، مكانًا مكانًا، وهو يمسك بجديلة

ياسـمين بيده اليمنى وجديلة رولا بيده اليسـرى، ولسانه خـارج فمه كثعبان كوبرا ، يحرك رأسـه يمينًا وشـمالًا كأنـه يتلـذذ وهو يأكل فاكهـة المتعة. رأيت المشـهد بأكمله بالظلال الخالية من الألوان والأشـكال. خرجوا من الحمام وذهب الشـيطان إلى بيته وهو يدندن، ولكن المشـهد ظـل يتكـرر أمامي حتـى فجـر اليـوم الثاني، اليـوم الذي طلـع به فجرنا مـن الغرب، اليوم الذي شـرع بتشريح مشاعرنا إلى قطع جامدة، اليوم الذي يردّد نشيد القبـح، اليوم الذي تحول فيه بيتنا إلى بيت دعارة وابنتاي إلـى عاهرتيـن بجسـديهما (ولكـن سـتبقيان طاهرتين بروحيهمـا). فـي ذاك اليـوم زارنا أكثر مـن ثلاثين رجل من مختلف الأعمار والأشـكال، كلهـم كانوا معبئين بالشهوة والتعصب. ومع الأيام صار العدد يزداد ويزداد إلى أن وصـل إلـى مئة رجل، كلهم يأتون ليزيـدوا ثقل الهواء فـي رئتيَّ، كلهـم كنت مثلهم! يدخلـون بقوة ويخرجون بضعف، أسـمع آهـات وصرخـات ابنتيَّ وهمـا تُغتصبان بالعجـز وبالـذل وبالفقر، وفـي آخر المسـاء وبعد رحيل جميع الكائنات الشهوانية أسمع صوت بكائهما الخارج من ريش المخدات، الذي كان يرج الوعي بقسوة، كانتا تبكيان لساعاتٍ وأحيانًا حتى مطلع الفجر، تبكيان وأنا

أبكي وأتمزق. أما هذا الجار الشيطاني الذي كان وجه لعنةٍ أمام مرايا حياتنا ، يكون دائمًا مع الرجال ليضمن حقه من المال، ينتظر ويجلس بغرفتي ويزعجني بفحيحه حتى ينتهي الرجال من متعتهم، ويأتي لوحده كل ثلاث أيام ليتمتع وهو يغتصب، ويرغم إحدى بناتي على غسله، ويرحل بعد أن يرمي إليّ بجملة قذرة. بعد أن كثر عدد الرجال أصبح يأخذ ثلث المال ليضمن استمرارية عمله. بناتي كما أعرفهن بسيطات وخائفات من دوني، فمنذ فقدان ياسمين عذريتها لم تتحدث معي ولم أتحدث معها ، حتى لم تلتقِ عيوننا ببعضها ، تأتي كل يوم وتغير حفاضي وتفعل كل ما يجب فعله لي وتذهب إلى غرفتها وكأننا لا نعرف بعضنا أو أنا جدار يُغسل أو أنها جسد دون مشاعر. أما رولا فتغيرت كليًا من سديم رقيق إلى جدار صلب، أصبحت عصبية بشدة، تنزعج من أي شيء أو حتى من لا شيء، و حين تفيق تجيء وتقبلني (برغبة أم بقهر، لا أعلم) وحين تريد النوم تقول لي:

-أتمنى أن يكون الغد لا يشبه اليوم أبدًا.

أما غارديا فأدركت بما يحدث بعد أيام من البدء، لكنها ترغم نفسها على النوم كي لا تسمع صرخات وتنهدات أختيها ، تنام على أرض غرفتي كمزهرية

تحب الشـمس. أصبحت أتجاهلها أحيانًا لكثرة أسـئلتها الحـادة حول مـا حدث وما يحدث وسـيحدث وماذا حدث لـو تغيـرت كل هـذه الأحـداث ولمَ ومـن المذنـب وماذا والكثير من الأسـئلة التي تتيح للعجـز بأن يعجن دماغي ومشـاعري بأسـنانه الزمنية. هي أيضًا باتـت تلعن الحياة بفلسـفة الحقيقـة. كادت لمـرات أن تخـرج مـن الغرفـة لتضـرب الرجال الذيـن يغتصبون أختيهـا ، ولكن قواها كانت تتقلص بـالإدراك ، هي تملك مفتاح الخيال ، تعود بخيالهـا إلـى الماضـي والحيـاة والديـار فترجـع والدمع يحـرق خديها بصمت. دموعها لازالت بعطر الطفولة ، هي تخاف الصدى ، وتخاف الخوف والإنسـان والعجز والفقر والفـراغ. هــي شـغوفة بالحنيـن ، تحـب الحيـاة ، ولكن كيف سأجلب لها الحياة؟

مرت الثواني والدقائق والساعات والشهور كزمن عمر بأكمله ، أصبح اسمنا القبيح دارجًا في المنطقة بأكملها والجار رفع نسـبة أرباحه أكثر فالرجال تضاعفوا بقدرة عجيبة ومن رائحة شـهواتهم القبيحة أخبئ ابنتي غاردينيا تحت السـرير إلى أن يرحلوا . و في الفترة الأخيرة لاحظت تغيـرات غريبـة لابنتـي ياسـمين ، حرارتها دائمًـا مرتفعة وحينما تنهض من مكانها كانت تشـكو من الصداع ،

وأحيانًا تركض للحمام من شعورها بالغثيان، وجهها يوضّح التعب الشديد، ودائمًا تسعل وتسعل احتراقًا من حنجرتها.

شككت بمرض الإيدز الفيروسي، إلى أن أتت إليّ لتحدثني بعد انقطاع شهور. دخلت الغرفة وهي تبكي دمعًا ساخنًا، احتضنتني بلهفة بالغة وهي تحكي، لكن صوت البكاء يقطع كلماتها إلى تفعيلات غير موزونة، وكانت كلمة (أبي) تتكرر مرارًا وتكرارًا وحزنًا وقهرًا وعجزًا وحبًا ولقاءً وشوقًا وحنينًا، ناديت الحب بقوة..

-ابنتي الطاهرة النقية الصالحة، لازال حبك يجري ويركض بحب في شراييني.

هدأ قلبها الرقيق وقالت:

-لقد تعبت يا أبي، لقد تعبت.

لم أتحدث، عدت إلى حالتي السابقة، عاد مورفين العجز يشنق خلاياي الحسية، ثم شرعت تقول بحزنٍ عميق..

-أنا لست آلة تفريغ..

أنا لست فتحة مهبل فقط..

أنا لست فريسة للضباع..

أنا لست كرة قدم..

أنا لست عجينًا يتحرك كيفما كانت رغبتهم...

أنا لست تفاحة تقضم دون أن تغسل بطهارة الحرية....

أنا لم أُسأل عن رغبتي بتكوين فتحة لي.. أنا لم أعتقد أن الإرادة ستسرق..

أنا لم أظن أن الحرية وهم للفقراء و العاجزين....

أنا أنصهر بشعوري بالفقراء و الأبرياء...

أنا أريد عالمًا مسالمًا لجميع الإنسانيين..

أنا أريد الإرادة..

أنا أريد (الأنا)...

إنّني أسلك طريقًا لم أختره بنفسي ولا أستطيع العودة منه..

أنا عاجزة...

أنا أتفتّت بقسوة، يا أبي!

باحت وأخرجت كل الأشواك التي تجرح قلبها إلى أن انزلقت بمشاعرها لتبكي بشكل هستيري، شلّ بكاؤها ما تبقى مني، حاولت وحاولت و حاولت أن أحكي أو أن أهدئها ولكن كان التعبير محالًا وأوتار

النطق مقطوعة، لكنّني نطقت بأوتار اللاوعي أوكتافًا واحدًا فقط..

-ابنتي العزيزة..

توقفتْ، أخرجت ياسمين روحها من غياهب اللاوعي لتحكي ما لم تبح به بعد..

-أنا مريضة يا أبي....

مفاجأةٌ أعادت جميع خلاياي الحسية للعمل المستمر المرهق، وجهي فلك الملامح بلون الصفار، فتح فاهي كفي الحمار، توسعت حدقتي، توقف كل شعر جسمي بقشعريرة الوعي، الغيوم المخبئة في شبكة الرؤية عصرت نفسها لتغمر خديَّ دمعًا ومطرًا مالحًا. لاحظت تحرّك سبابتي بحركة بسيطة. ثم عادت تكمل طلاسم البوح..

-وداعًا يا أبي، سأذهب لأعيش ما تبقى من حياتي...

احتضنتني وقبلتني أكثر من قبلة، خرجت من الغرفة نحو غرفتها المبتلة بالدمع و اللعاب. بعد لحظات سمعت صوت بكاء بناتي بصوتٍ واحد، سمعت أيضًا صوت الهواء المبتعد عن الأيادي وهي تدور حول الأعناق، سمعت أيضًا نغمة التقبيل المستمر على إيقاع الحب،

وأخر ما سـمعته صوت تلويحة يد تبتعد ببطء شـديد إلى أن اختفت فـي غياهب الموجات. في تلك اللحظات كان هنالـك ما يحدث بي.. شـعوران كانا يتصارعان في حلبة العجز، الأول كان يقول «فلتعد»، أما الثاني كان يقول «فلتذهـب لتعيش»، كنـت بينهما حائـرًا، لا أعلم أيهما على حق! هي ابنتي بكل معاني هذه الكلمة، وأنا أحبها بـكل طرق الحب، ولكنني ظلمتها بعجزي، كما أنني لا أريدهـا أن تتعب معي، فليكـن ما تريد، أما الجمهور كانـوا جميعًا يـرددون «هي مريضة، هـي مريضة، هي مريضـة.... إلخ» أي أنها سـتموت! أيعقل؟. اللامعقول أخذ حيّزًا واسـعًا من الفكـر، الأفكار تتخبّط بشكل معقد أكثـر مما هو منحرف عن سـياق الصواب. أخيراً، وبعد عشرة ساعات، ربطت المشهد بفكرة اصطنعها المرض لتهرب، ربما، فليكن، غفرت لها، وسـأحبها حتى آخر نفس لي، ولكنني سأشتاق إليها و إلى ابتسامتها وعيونها وكلماتهـا وصفاتهـا وحركاتهـا وألفاظهـا ومعانيهـا وتعبيرها وعبيرها وحبها وذاتها وخيالها وخيرها وشـرها وحتـى إلى دموعها! سأشـتاق إليها بـكل ما تبقى بي من مشـاعر، ستبقى ابنة طاهرة لي، سـتبقى الجزء الطاهر مني!

عـاد الفجـر للخـروج إلـى الرؤيـة، دخـل الجـار بيتنا وهـو يتفقد المـكان، أدرك عدم وجود ياسـمين بعد أن بحـث في كل مكان بالبيت حتى تحت سـريري و تحت مخدتي، صاح بجنون:

-أين ذهبت....؟؟؟

ربطت أوتار نطقي وقلت له:

-هي في قلبي أيها اللعين.

جن جنونه دار حول نفسه مرتين كالمتصوف، وإذ به يقصدني بغضـب! رفعني وتركني، علاني وأسـقطني، أخذني وأبعدني، مسـك بي في الهواء وضربني بالسرير. قلت بابتسامة كاذبة:

-أنسيت بأني مشلول؟!

جـن أكثـر فذهب للغرفـة الأخـرى وأتـى بابنتي رولا وهو يشـد شعرها بقسـوة، اقترب بفمه الكريه من أذني وهمس:

-سـأجعلكم تـنـدمـون لـأنـكـم لـم تـخـبـرونـي..

أقلقنـي قوله، فمن الوحش كل شـيء يُصدق! راقبت أدق تفاصيـل ملامحـه كانـت هنالك رغبة سـوداء تلمع

بقسوة من عمق عينه الثالثة. جلس بجانب سريري، وشرع بخلع جواربه العفنة من أقدامه المقرفة ليهلك الهواء برائحته القبيحة، وصاح بوجه ابنتي رولا «مصي أصابع أقدامي». نظرت إليّ رولا بنظرات العجز التي تكسّر جليد اللامبالاة واللاشعور، التي تكسر عمود الإرادة و الحرية. صفع الشيطان خدها الأبيض وبصق بوجهها وهو يصيح بها «هيا يا حقيرة، هيا وإلا قتلت هذا المشلول». انتظرت رولا النجاة لبرهة، انتظرت الخلاص بلهفة، انتظرتني كي أنهض أو أكسر حنك الزمكان بقبضتي، ولكن....

قبلت رولا بالحال كما هو، حفرت قبورًا لمشاعرنا في أرض الذل وهي مغسولة العقل والرؤية والإرادة والقوة. شرعت تمصّ أصابعه المقرفة وصوت تكسر جبال مشاعرها تلعن الصدى وتلعن اللعنة والزمن والمكان وتلعن الحال وتلعن الجار والدار والغبار والضوء والمادة والرياح والاتجاهات والفصول. إنها تقرأ طلاسم الدمار، تُسقط الأرض في دوامة اللامكان. إنها تحرف المسار وتفخّخ الأبعاد بالذل، تخدر الملائكة بالزجاج المنصهر..

تحوت وراع وآمون وزيوس وبوذا وأفرودايت والنترو وسخمت وإيزيس وأنوبيس، أبيس، أمنحوتب، بتاح،

إسـكليبوس، باخـوس، هيـرا، كيوبيـد، أطلـس، آرتميس.. كلهم كلهم من اللامكان شعروا بقشعريرة!!! ابنتـي غاردينيا رجفت ورجفت ووقعـت في دوامة الغيبوبة من مكانها. إلا العجز صمد!

أخـذت تفعـل لـه مـا طلـب بالغصـب والإجبـار، وهو يتمتـع ويتلذذ بإذلالنا وكسـرنا. زالت رغبتـه في الظلام فقـام بركل رأس ابنتي ورحل. غرفتي تهشـمت بالبكاء والعويـل، الذل يمسـك الهواء بقبضتـه، والفقر في زاوية الغرفـة يبـوح بنـا لـلأرواح المحلقة فـي السـماء، وطيف ياسـمين يتلاشـى في دهاليز الضوء الأبيض، ذاهبًا إليها ليـروي لهـا الحـدث القاتـم. تعبت عيـون ابنتي مـن البوح فعاد الهدوء يسـيطر على الغرفة السوداء. أفاقت غاردينيا بصفعـة مـاء مـن الغيبوبة، نهضـت هادئة لتعيـد الأمجاد إلـى النور، وأتـت تحضنني بصمتٍ صاخـب إلى أن نامت متعبـةً مـن الواقع. رولا ذهبت لغرفتها كـي تنام هربًا من حراشـف الواقع الملعون، ولكن عودة الشـيطان كانت سـريعةً! دخل الدار ومعه مجموعة من الشـباب، سمعتهم يتحدثون عن الدخول. قال أحدهم:

-إن دخلنا عليها معًا، فكم تريد؟

رد عليه الشيطان بصوتٍ فاضح:

-أريد خمسة أضعاف ما طلبته.

همسوا لبعضهم ووافقوا، فدخل الشيطان غرفتها وصاح بها:

-قومي يا عاهرة، لديك عمل.

وبعد لحظات دخلوا جميعهم إليها، بدأت أصوات الصفعات والتنهدات والتخبطات، وكأنهم يغتصبونها معًا، وكأنهم يسرقون ابنتي من بعضهم البعض، ارتفع صوت رولا عاليًا عاليًا كصوت جبلٍ جليدي يتكسر، أو ربما من نزيفٍ رحمي، حينذاك كان صوتها أعلى من جميع أصواتها في الأيام السابقة، أو ربما سيكون أعلى من الأيام القادمة!. بعد ساعةٍ تقريبًا سمعت صوت انكسار أرجل السرير تحتها، أو ربما صوت انكسار حوضها! لكنّهم لم يخرجوا، إنما ارتفعت قوة شهوتهم، كان ملحوظًا من ارتفاع أصواتهم أكثر فأكثر. مرت ساعةٌ أخرى وفجأةً توقف صوت رولا، ولكن كانت أصواتهم مستمرة بالفحيح، كأنها فقدت وعيها! وأصواتهم لم تتوقف أبدًا، مرّ على دخولهم ثلاث ساعات، ثلاث ساعات بأكملها، ثلاث ساعات تمزيقًا لجسد رولا، خرجوا من الغرفة ضاحكين، قال أحدهم:

-لقد أكلتها كالأسد...

ردّ الآخر بغيظ:

-نعم لقد مزقنا الفتاة..

بعد أن رحلوا ، لم أسمع أي صوتٍ من غرفة رولا ، وكأنها ماتت..!

أيقظت غارديني لتذهب لغرفتها وتتفقدها ، قامت وقصدت غرفتها ، وحينما وصلت إليها صرخت، صاح قلبي أيضًا..

-ماذا حدث لها...؟؟؟؟

عادت تقول بحزن:

-رولا مغسولة بالدماء، جسمها ممزق بالأظافر!

صاح قلبي مرةً أخرى..

-هل مازالت حية...؟؟؟؟

ردت رولا من غرفتها بصوتٍ يكاد يسمع بالأذن، ولكن قلبي سمع..

-أنا بخير أبي.

أخذت غارديني الضماد والكحول والمناديل والأدوية إليها وعادت تقول لي «هي بخير يا أبي، فلا تخف، القليل من الوقت وستستعيد عافيتها». بقيت عندها وهي تداوي جروحها ، جرحًا جرحًا ، ونامت عندها لليوم الثاني

والثالث والرابع. غاب الجار لأسبوعٍ كامل عنا، كان خائفًا مما حدث لرولا ولكنه كان يراقب منزلنا إلى أن عاد إلينا بعد أن رأى رولا وهي تجلب الطعام من الخارج. دخل المنزل كشمبانزي، نافخًا في صدره هواء السلطة. جلس في غرفتي وقال بقرف:

-يوم الاثنين هناك سيدان ثريان سيأتيان.

لم أفهم ماذا ينوي هذه المرة ولكن كانت تلك البقعة السوداء في عينه الثالثة تلمع أكثر من ذي قبل. وعاد يقول..

-يجب أن نجد بديلًا عن ياسمين.

وجدت لبرهةٍ من الزمن كلامه غريبًا لكن حين تذكرت ابنتي الصغيرة غارديني أدركت بماذا يفكر هذا الشيطان، وكانت أمنيتي الأكبر هي أن يعمى عن غارديني ويقول ويفكر بشيءٍ آخر، ومهما كان. قال لرولا بوقاحة:

-تجهزي وأنا سأجد البديل..

قالت رولا بصوت خائف بعد أن فهمت هي أيضًا بماذا يفكر هذا الشيطان..

-من البديل؟؟؟؟

دنـا بنظره نحو غاردينيا التـي كانت في حضني وقال لها:

-أنتِ يا جميلة.

فاجأنـي هـذا الشـيطان وهدم أكبـر آمالـي. رجفت غاردينيا من الخوف. قلت له بطريقة مقنعة إلى حدٍ ما:

-هي صغيرة جدًا، ستموت وستدخل السجن يا جار!

رد علي بابتسامة شيطانية:

-لن تموت، عمرها خمسة عشر.

هزنـي وخلع عني رجولتي وجبروتي، شـرعت أتوسـل إليه بكل ذل وخنوع..

-أرجوك يا جاري العزيز لا تفكر في هذا.

قال ناهضًا:

-سأذهب لأجلب الإصبع الاصطناعي.

خـرج إلـى بيتـه، نظـرت أنـا وابنتـي رولا إلـى عيـون بعضنا، نفكر في ما يجب فعله قبل أن تنجرف غاردينيا إلى دوامة العهر. قلت لغاردينيا بأن تختبئ تحت سريري، ووثقت الأمنية إلى السـماء طالبًـا من الرب أي حدثٍ آخر غيـر هـذا. مرت دقائق عديـدة، عاد الشـيطان ومعه تلك الأداة اللعينـة، نظـر بتمعن وبدقة إلـى ملامحنا، ثم نظر

لتفاصيل المكان بحثًا عن غاردينيا ، قلت له محاولًا تهشيم فكرته الملعونة :

-لقد هربت....

رد علي بدهاء خارق:

-لم تهرب....

أضاع نصف ساعة باحثًا عنها في البيت كله إلى أن وجدها تحت سريري ، فشدها من يدها ثم صفعها ثم قال لها :

-منذ الأن أنت عبدة العمل.

جرّها من شعرها إلى الغرفة الأخرى وهي تصرخ لنا ، ونحن مقيدون بسلاسل العجز الحديدية. رولا كانت تقضم أظافرها وأنا كنت أُلبس العجز ثوبه الجديد المبلل بالدم. عادت غاردينيا إلينا وملامحها لا توحي بشيء ، تبتسم وبعد برهةٍ تعبس ، كانت سجينة الغرابة ، تهبط سريعًا من قوة الجاذبية ، كانت ليست هي ، غريبةٌ بكل حركاتها وملامحها ونظراتها. نظرت إلى ساقيها ، الدم الطاهر كان يتدحرج على هاوية اللعنة ، الأرض تحتها كانت تلعب بدمها المتمرد الساخن ، مشاعرها كانت تعجن بالقهر. جلست بهدوء بجانب أختها ، والشيطان

عـاد وأنيـاب عهره حمـراء بالـدم النقي، وقرونـه تخترق سدائمنا، طبخ عهره بالكلمات ونطق بها..

-رولا، أعدّي أختك الصغيرة للغد، فأنا سأدخل بها.

أغلقـت رولا جفنيهـا طاعـةً وخوفًا وعجـزًا، وبجانبها غاردينيـا تغـوص في عمق القهـر. أصابني شـيء جديد، شيء لم أتوقع حدوثه، بدأت أنفجر وأنفجر محاولًا كسر عنق العجز، بعد كل المحاولات اليائسة، محاولة أخرى تحفر نفسـها بقوة في حالتـي، حركت إصبعي بحركة أقل من بسـيطة، عادت الإرادة تنهض بعد كل خسائرها السابقة، ولكن... هاجس عجزي قويّ، يتحرك عشوائيًا بداخلـي، هاجـسٌ أقـوى مـن أن يُدمـر حتى لـو حركت جسدي بأكمله. غاردينيا، تضيع الآن في متاهات البرزخ، خسـرت نفسها وحياتها وسعادتها، خسرت معها ما تبقى منـي، رؤيتي أصبحت تتقلـص ببطء، الأغاني جميعها لم أعـد أحس بها، لم أعد أرغب بالتحرك، الحياة أصبحت وجهًا للموت، الموت أصبح سيد محيطي، وسيد عرشي، وسيدي. لقد استسلمت تمامًا للعجز، أنا الآن جثة هامدة بجسدٍ ضعيف وبنفسية مدمرة ودون قلب.. وروحي! أنا لم أمتلك روحًا من السابق.

مـرّ يوم آخـر من الجحيم، فقدت شـهيتي فـي الطعام

والمـاء، بعـد محـاولات كثيـرة مـن ابنتـي رولا، كلها فشـلت، استسـلمت، أريد أن أتخلص من حواسي الباقية قبل أن يدخل الشيطان على غاردينيا، قبل أن أسمع صوت تمزقهـا، قبـل أن أرى فجر الفجور علـى ابنتي الصغيرة، قبل شمسٍ أخرى، وصلت إلى أعلى سلم العجز.

جـاء هذا الفجـر اللعين بكل عهره ولم أمت بعد، جاء الشـيطان ودخل وضاجع غاردينيا، صرخت غاردينيا ولم أمت بعد، دخل الشـيطان غرفتي وذلني وشـلّني ولم أمت بعد، رحلت الشمس ولم أرحل!

«أريـد أن أمـوت».. «اقتلونـي».. «ارحمونـي».. أصبحت أرددها بهلوسـة بيـن ابنتيّ، لم أتوقف عـن نطقها، فحقًا أرغـب بالرحيـل. غاردينيـا كانت صامتـة، رولا كانت صاخبـة باللعنـات، لـم يسـتطعن قتلـي، لم يقـدرن على التفكير بما سيحل بهما بعدي، لازال الأمل جزءًا موجودًا لديهمـا. كانتا تفكران في شـيءٍ مـا، كانت الملامح تفضحهما، سمعت همساتهما البسيطة وبعض الكلمات كانت فصيحة وواضحة لي، أدركت أنهما تنويان لشيءٍ ما ولكن ثمة عائقٌ في طريق النية. الفجر بدأ يفك خيوط الظـلام علـى المدينة، خرجـت رولا من غرفتـي بطريقة غريبـة فتبعتها غاردينيا وهـي تراقب نظراتي إليها، وبعد

لحظات سمعت خشخشة وهمسات، ثم صوت طقطقات ثم صوت إغلاق الباب. تكوّن الإدراك ليخبرني بهرب ابنتيّ دوني، ويخبرني أيضًا أن العائق كان أنا، إلا أنهما تجاوزتاني. أصبح البيت هادئًا، هادئًا للموت ليقترب أكثر من نبضي المثلج بالخفقان البطيء. الأصوات تلاشت في دهاليز العدم، إلا صوت نبضي، أسمعه يصيح رجاءً من الموت، فلم يأتِ. مرت الدقائق على كف الزمن، عطشت، خبرٌ سار يخبرني به جسمي، أسعدني العطش فهو الطريق الوحيد إلى الموت الجميل، الموت الرحيم، إلا أن الوقت لم يحن بعد، عادت الأصوات، صوت وقع أقدام يقترب من المنزل ومعه صوت جر شيءٍ باليد على الأرض. فُتح الباب بقوة، وإذا بالشيطان يمسك شعر غارديني بيده اليمنى، ويجر رولا بيده اليسرى، دخلوا، وابنتاي تطلقان عبارات الرجاء مع صوت خفقان قلبي. صاح الجار الشيطاني بنا وهو يرميهما على أرض غرفتي:

-أنا أراقبكم يا ملاعين.

خرج وهو يرفع سبابته تهديدًا. أعاد إليّ هذا الملعون رائحة العجز الممتزجة بالأكسجين، أعاد إليّ الزمن الثقيل وأصوات صرخات بناتي والتخيلات المكروهة

ووجـع الوجـع، قيّدني مجددًا بالسـرير والمـكان. مرت ساعة عجوزة أخرى والنحيب ينصهر في بركان الشعور. عاد هذا الوحش مرةً أخرى ليعيد اللعنة إلى جعبة الزمن..

-غدًا هو الاثنين، سيأتي السيدان فجهزا نفسيكما.

خرج راميًا بعض المال بوجه رولا.

الاثنيـن.. ذكرني هذا اليوم بيومي المفضل في التمتع واللـذة. كان يوم إذلالي للفقراء وتمتعي بممارسـة العنف بالنساء، هذا اليوم هو شوكٌ حاد في صميم قلبي الأسود، يظـل يتحرك ويرقص ليمزق الشـرايين ويلوث الدم ويقتل كرياتـي البيضـاء. هذا اليـوم بقعةٌ سـوداء على جبيني، حجرٌ صلب في كبدي، هذا اليوم نسـيجٌ سـميك يتغلغل بيـن رئتيّ، هـذا اليوم هـو المفتاح الذي دخلـت به عوالم الظـلام والأوهام والشـرور والغرور والسـموم، يوم اللعنة هـا هـو يعود مجـددًا ولكن باختـلاف المخـرج والأدوار والمـكان والزمـان. هـذه المرة سـنكون الشـخصيات الضعيفة والعاجزة، وسـيكون السـيدان آناي السابقة، والجار مخرج المشاهد الوحشية.

قاطعت رولا بصياحها كلام نفسي معي..

-يا إلهي أين الحل..؟

عبّأت غاردينيا الصغيرة رئتيها بالهواء وقالت:

-سنحاول الهرب مرارًا و تكرارًا ، حتى ننجح.

كنت أستمع لحديثهما الذي كنت فيه عدمًا وكأني لست أباهما! ولكن من أنا هاهنا إلا جثة لا أكثر! رغبت بحلٍ لهما ففكرت وفكرت، بما أن الهروب فاشل والغوص في الروتين اليومي جحيم، فلا حل سوى بقتل الجار! ولكن من ذا الذي سيقتله! أيعقل أن تقتله رولا؟ ولكن كيف ستتحمل تأنيب الضمير؟ ستتحمل! إن الذي تفعله يوميًا أقسى من قتل شيطانٍ يستحق القتل، ولكن هل كنت أنا أيضًا أستحق القتل في السابق؟ ربما.

لا ، لا يعقل قتله فذلك رغم كل شيء يعتبر جريمة، ولكنه يقتلني ويقتل ابنتيّ وقتله دفاع عن النفس! ما الحل يا اللّه؟

وكأن غاردينيا الصغيرة كانت تقرأ أفكاري، قالت لرولا الجالسة بجانبها بألم شديد:

-أختاه، لقد فقدت قلبي البارحة، أنا لست أنا ، وكي أعود لي يجب أن نخرج من هذا المستنقع القذر، يجب أن نقاوم التيار لنرى الفجر، يجب أن نفكر ونفكر و نفكر ونفعل ما يجب فعله، لن أستسلم، فليكن الموت

رايــة بيضاء، أنــا أتألم يا أختــي العزيزة، منــذ يوم واحد فقط، فكيف سـأتحمل كل الأيام القادمة، أوجدي لي حلًا أو طريقًا للنهوض والخروج.

أخذت نفسًا طويلًا وأكملت تفكّ العقدة:

-لقد فكرت، ولا حل سـوى قطع التيار، لا حل سوى رش المسـتنقع بالمـاء، لا حـل سـوى قتل هذا الشـيطان فكل الحلول الأخرى رياح، تشعل النار أكثر.

دهشت بكلامها، كانت تتكلم كالبالغين، كيف لها أن تنطق بكل هذا لو لم يكن الألم العظيم شريكها فـي الوعـي، لقد عبرت كل مسـتويات الألـم لتصل إلى المسـتوى الأخيـر، حتى تجاوزت الشـيخوخة النفسـية، بيـومٍ فقط، آهٍ، أنا أتعذب لعذابها رغم عذابي من العجز. أنا لم أكن لي ولسـت لي ولن أكون لي، أنا هنا وهناك ولاهنا، أشتعل وأتوجع بشدة.

مرة أخرى شرعت غاردينيا تحكي حكاية الوجع..

-أختـاه، أنــا ضعيفـة وعاجـزة عـن فعل شـيءٍ كبير كالقتل، أنا فراشـة تكسَّـر جناحها بريـحٍ قوية، ما لي سـواك، أنـتِ الوحيدة القادرة على كسـر بـاب الحياة، أنتِ التي سـتقتلينه، أرجوك افعليهـا لنرى النور مجددًا،

اقتليه من أجلي وأجلك ولنعطر الأرض من رجسه.

قالت وخبأت وجهها بين كفيها، أما رولا كانت تصارع نفسها بقسوة، مترددةً في اختيار القرار، بين وجعها وفكرة قتله، بين كلام أختها وضميرها، كانت تجدف بكل قوتها لتتحرر من التيار، فكرت طويلًا لتقول بعفويةٍ..

-نعم، سأقتله.

ذهلت، جننت، حاولت قول أي شيء، إلا أن النطق قد مات، و الأوتار قُطعت بالعجز، لقد فقدت قدرتي على الكلام، وصوتي لا يسمعه أحد غيري، لا أريد أن تكون ابنتي قاتلة، لست راغبًا بضمها إلى ثلة الأشرار ولو كان الجار يستحق. صوتي كان صامتًا ولكن أنين الرغبة بالحديث كان عاليًا، فزعت ابنتاي من أنيني، كانت ملامح الغرابة واضحةً عليهما. كانت الحيرة تسكنهما من رأيي بهذه الفكرة إلا أنني أيضًا لازلت حائرًا. حاولت رولا جاهدةً معرفة رأيي إلا أنها فشلت، تركتني وقصدت غرفتها، نظرت إلى غارديا، كانت تصرخ ألمًا بملامحها، وتضيع بين غضبها وهدوئها. انفجارٌ كبير كان يحدث بداخلها وهي التي تتبعثر وحدها في داخله. استمرّت بقلب نفسها على فصول

مشاعرها إلى أن قالت بشكلٍ مفاجئ..

-أنا سأفعلها.. إن لم تستطع رولا فعلها.

تفاجأت مجددًا، فغاردينيا التي أعرفها لا تفكر هكذا، لقد تحولت كليًا من فتاةٍ خائفة للغاية إلى عجوز ضجرة وجريئة، من نبتةٍ إلى غابةٍ مظلمة، من غيمةٍ ماطرة إلى نيزكٍ طائش، من شلالٍ دافئ إلى جبلٍ جليدي، من غاردينيا إلى بركانٍ هائج! قامت تطوف حول نفسها لترسم لي دائرة الحيرة، عادت للجلوس مجدّدًا حتى تعبت من المعاناة ونامت. عدت إليَّ لأحدثني عن المشاهد التي سأشاهدها بحواسي وعن الأحداث التي ستحدث لو قُتل الجار على يد ابنتي، وماذا سيحدث لو حاولت ولم تستطع، و ماذا سيفعل الجار بنا، وأسئلة كثيرة تدعس على وعيي بوحشية، وأجوبة تلوّح من بعيد للزمان والمكان، فما لي قدرة على الكفاح، ولا لأناي حتى، فأنا المستسلم منذ الزلزال وأنا الشيطان ما قبل الزلزال، والآن أنا فريسة الأسئلة الزمنية، أسكن في دائرة محيرة بين أشباح الأسئلة وظلال المشاهد المؤجلة ولا سبيل للنجاة إذا لم أخضع لأوامر الانتظار المخجلة للإرادة.

الآن غرفتي من غرف الموت، يسودها السواد وتحدث

فيها المجازر الحسية، لها بابٌ يشخر كلما تحرك ولها نافذةٌ صغيرة يعبرها نور القمر متفتّتا إلى بقع صغيرة حتى يصل إليّ كخبزٍ منكسر على مائدة الواقع، ولها سريرٌ نحاسي صدئ، عليه جثة شيطان يتعذّب عجزًا وضميرًا ووجدانًا، وللشيطان ثلاث بنات تشربن معه كأس العلقم، فلكل إنسانٍ كؤوس من العلقم حسب زمانه ومكانه وعقله ونفسه ووجدانه، ولكل إنسانٍ ضعف، ولكل إنسانٍ رغبة في الموت في بعض الأوقات ولكن هنالك من يرغب في الموت في كل لحظاته من قوة ضخه للوجدان. هنالك من يكافح بالفن وهنالك من يبوح للورق، إلا أنا، عاجز جسديًا وروحيًا. إلا أنا، ربما أنا الوحيد الذي يذكر الرب كل ثانية ليأخذ روحي من هذا الجسد والمكان والزمان، ربما أنا الوحيد الذي شعرت بعد زمن بكل ما فعلته بالإنس، ربما أنا الوحيد الخاضع لسيطرة جميع قبائل الوجدان، ربما أنا الوحيد الذي وصل إلى لب المعاناة عن طريق العجز.. أنا وأنا... ولكن لا أظن أبدًا أنني العاجز الوحيد، كثيرون هم، ولكن لا أحد يشعر بهم، كثيرون هم، ولا أحد يمد لهم يد الإنسانية، كثيرون هؤلاء كما أنّ الشياطين كثر. هذه غابة الشراسة، البعض أشجار تعطي الأوكسجين

فتُقطع، والبعض ثعابين تحتضنها الكاميرا! البعض يستحق السعادة والبعض يسرق الابتسامات، البعض إنس والبعض وحوش.

طلعت شمس الاثنين بحرارةٍ حارقة، بعد أن لملم الأحد أفكاره ومشاهده في جعبته ورحل خافضًا رأسه ذلًا. دخل الجار بيتنا المهترئ وهو يصيح بابنتيّ كي تجهزا نفسيهما لاقتراب مجيئ السيدين. راقبت حركات ونظرات رولا قلقًا من الأحداث الآتية. دخلت رولا المطبخ وخرجت بهدوء نحو غرفتها، تبعتها غارديניا. جاء الجار إلى غرفتي وجلس وهو يراقب ساعة اليد بلهفة، قال بعد أن أشعل سيجارته النتنة:

-اليوم هو يوم حظنا يا عجوز.

سكت، اقترب مني وابتسم ابتسامة الذئب وقال:

-لمَ لا تتكلم يا أبا العاهرات؟

بقي واقفًا يرمي سيجارته على وجهي، منتظرًا حديثي. أنهى السيجارة ورمى عقبها على رأسي وصاح:

-أيا عاهرة.... لمَ لا يتكلم هذا العجوز؟

جاءت رولا من غرفتها ويدها خلف ظهرها كأنها تمسك بالسكين بقوة، اقتربت وقالت:

-لم يعد يستطيع النطق.

قهقه الجار ضاحكًا، ودنا من أذني..

-هذا أفضل، أنت مت وأنا سأرعى العهر.

قالها وعاد بالنظر إلى الساعة ليجلس مجددًا، واضعًا رجلًا على رجل، رافعًا أنفه، مشعلًا سيجارةً ثانية، بولاعةٍ عليها صورة جمجمة. نظرت إلى رولا كانت واقفةً كالصخر، تعض جسد الجار بنظراتها الثقيلة الثاقبة، ويداها خلف ظهرها، تتحسس مسننات السكين الطويل، شرعت تخطو خطواتها البطيئة نحو الجريمة، أما غاردينيا فكانت واقفةً خارج الغرفة، تنتظر الضوء الأخضر لتشن هجومها على الزمن والمكان مع أختها. اقتربت رولا من الجار الشارد في الفراغ، شرعت تخرج السكين من بنطالها بهدوء، وبحركة سريعة أخرجت السكين ورفعته في الهواء لتغرسه في صمام العهر، إلا أن القلب قد أوقف الرغبة في آخر خطوة. ظلّ السكين ملوحًا في الهواء، منتظرًا لحظة الانطلاق. مشت اللحظات في ممر الزمن اللولبي، ودام الجار شاردًا في اللاشيء، وظلّ السكين يحاول كسر القيود بلمعانه، وبقيت رولا حائرةً بين الطريقين المظلمين، حتى فاجأنا باب المنزل بصوته الصادر من ضربات الأيادي. تغيّر مجرى الأحداث

كليًا إلى أسوأ مما كنت أتخيله، الباب يقول لي «لقد أتى السيدان»، الهواء يحذرنا من نوبة ريح قوية، الجدران تتشقق فضولًا للذي سيحدث، الغرفة تقرع طبل الحرب، الوجود يصرخ في أذني «ابنتاك في خطر»، القلق زحف نحوي واستقر بكامل جيشه بداخلي. لحظاتٌ حادة حفرت طريقها في وعينا، ولحسن حظنا وكل الشكر لذاك الفراغ الذي أمسك الجار بقوة. دام الجار شاردًا غائبًا عن الواقع، غير سامع لصوت الباب، وهذا ما أتاح الفرصة ليعود السكين إلى مكانه، خلف رولا، قبل أن يحس الجار بما كان سيحدث لو لم يدق الباب. ذهبت غاردينيا لتفتح الباب وهي تصطنع الابتسامة، أما رولا ظلت في حالة ذهول وخوف وتردد وقلق إلى أن قام الجار من مكانه وقال بصوتٍ خافت بعد أن أدرك وصول السيدين..

-لمَ لازلت واقفة يا حمقاء؟

مشت رولا نحو السيدين ببطء شديد وهي تمسك الغضب بحزم، و الجار جرى مسرعًا لاستقبال السيدين، فرحًا بالكنز القادم منهما ومنا. السيدان كانا شديدا المثالية والجدية حتى أن السماء كانت أقصر من جبينهما. الأول طويلٌ وضخم البنية، أسمر البشرة وذا

عيونٍ بنية. أما الثاني عاديٌ جدًا بشكله البسيط. الأول نظر بوقاحة شديدة لغاردينيا وقرأها على مهلٍ وقال:

-هذه الصغيرة لي..

ردّ الثاني بالقبول.

وإذ بالأول فجأةً يصفع غاردينيا أمام أنظارنا جميعًا. أخفضت غاردينيا رأسها خنوعًا وضعفًا نحو الغرفة، فتبعها العملاق وهو يلوح بيديه العاريتين ماشيًا بكبرياء و غرور. أمسك الآخر شعر رولا بقوة وجرها معه نحو الغرفة.

أما الجار عاد إليّ مبتسمًا يفرك يديه ببعضهما، وبينما شرع بالجلوس، سمعت صوت اختناق غاردينيا كصوت إنسانٍ في يد الموت، توقف الصوت، وإذا به يعود مرةً تلو الأخرى. لكن في المرة الأخيرة كان الصوت مكتومًا بشيءٍ ما، كأنه وضع يده في حلق ابنتي غاردينيا، ثم تبع صوتها صوت رولا بنفس الدقة والتقليد. إنهما يفعلان ما كنت أفعله مع النساء بشكلٍ دقيق جداً! إنهما من فئة الشياطين الحمراء، من عبدة القسوة، من مصاصي العنف، من مفترسي الغابات المظلمة، إنهما من الذين يؤلمون الأبرياء وكأنهم أضراسٌ لعينة تؤلم النفس والجسد، فحين يمارس أحد هؤلاء طغيانه

وممارساته يجعل حدقة الشاهدين تتوسع ألمًا ، وسنديان آذان السامعين يئن اضطرابًا ، ونفوس الشعراء تضيع في متاهة الصور شاردة ، وأفكار العقول تتبعثر قلقًا وغضبًا ، وجدران الحياة تتشقق شررًا ، وسقف السماء يسقط غيظًا ، والتعبير يعجز عجزًا !.. أما هم كانوا في حالةٍ كيميائية غريبة ، يصبحون أكثر انجرافًا بأفعالهم العدوانية ليدخلوا دون عقلٍ في دوامة الإفرازات الكيميائية ، إنهم يدخنون المخدرات بالأفعال ، يطورون صفات الإنسان الأزلية ، ولكن من المؤسف أنهم وُجدوا لتتوازن الطبيعة! ومن المؤسف أيضًا أنهم أشواكٌ حادة بقلوب الجميع ، والأسف الأكثر للذي يشعر بالجميع ، للذي يحضن الأطفال حبًا ويفهم الفقراء سمعًا وقلبًا ، للذي يريد للسلام وجودًا ويريد للوجود جمالًا ، وللذي يريد للحياة سعادةً ، فهو من سيتألم ويتوجع وجدانًا وضميرًا أكثر من الجميع. فيا ليت هؤلاء الشياطين يسقطون في أيادي العجز كما سقطتُ أنا لربما تفيق ضمائرهم ، لربما يندمون!

شردت طويلًا هاربًا من الواقع لأغرق أكثر في فلسفة الواقع ، فليس كل من هرب نجى ولا كل موجودٍ في القطيع بليد. ليس الواقعي غريب إنما الواقع غربة ووحدة

و وجـع. شـدتني صرخـات غارديـنيـا الأخيـرة مني، خرج الرجل الهزيل وهو يمشـط شـعره بأصابعه ويمسح عرقه بقميصـه، أخرج ماله من جيبه ورمـاه بوجه الجار ورحل. مـرت دقائق على رحيله فتبعه العمـلاق بعد أن قال للجار بفخرٍ وغرور مع ابتسامةٍ عريضة:

-أرسلت الصغيرة إلى الجحيم، لا داعي لشكري..

فـي الثواني الأولـى لم أدرك معنى قولـه، ربما كانت الحقيقة أكبر من أن تسـتوعب بلحظات معدودة، كما أنني دائمًا أختار التحليل والتفكير بدلًا من الحقيقة، ثم مـا قيمـة الحقيقة لو حصلنا عليهـا دون جهد؟! عدت بعد هنيهـة إلـى اللحظات الأخيرة من وجود السـيد في بيتي، وبدأت أقرأ تفاصيـل الفواصل والحروف والكلمات وما خلفها، وحاولت بكل جهدي رؤية ملامح المعنى وقياس طاقة الكلمات بقياس السمع، إلا أني لم أدرك الإدراك، فخرج الجار من البيت وهو يقضم أظافره. خرجت رولا من غرفتهـا وملامحها مغسـلة بكره الـذات، قصدت غرفة غارديـنيا وصرخت! هنا وفي اللاهنا، وقتها وفي اللاوقت. قصدتني فجأةً قوة هائلة كإعصارٍ غاشـم، شردتني في غياهـب اللاوعـي وفي دوامة العدم ومـن ثم عادت بي إلى محطـة الإدراك، لأدرك وفـاة ابنتـي الصغيـرة، ومـن ثم

دفعتني تلك القوة إلى قعر الوجع ورمت عليّ الكثير من الأشواك المنسجمة مع بعضها على شكل كرات، ثم أعادتني إلى الواقع لأسمع عويل رولا على أختها. عويلٌ إيقاعي على سلالم الألم، عويلٌ يثقل الهواء على رئة الوجود، عويلٌ يشد الواقع نحو التيه، عويلٌ يهشم الشعر ويقضم الجمال ويقتل روح المعاني، عويلٌ على عويل.. ماتت عويلًا أمام حواس عويلٍ بين يدي العجز، عويلٌ يقرع أجراس الصدى، يخترق الصوت بسرعة الضوء، عويلٌ يذيب جليد أقطاب الخيال، عويلٌ كنشيد الموت، عويلٌ كصوت الناي على الصبا، عويلٌ يطرز الألم فستانًا للزمن ويكسو المكان بصوته ويزيد المشهد سوادًا.. عويلٌ يظلّل لوحات القلب، يفرك الوجدان بين يديه، عويلٌ عويلٌ ثم عويلٌ إلى عويلٍ حتى عويل..

وضعت رولا العويل جانبًا وشرعت تسرد حبها لروح أختها، تسرد حكاية الألم، وترسم متاهة حياتنا وتخبر اللّه أن الضوء لم يصل إلينا منذ زمن، منذ مكان، ومن ثمّ توقفت. أدركت أن الغضب يتسلل إليها، أتت إلي وعيناها مخبأتان خلف الدمع وملامحها مصفرة وأناملها حمراء بالدم، أتت بخطواتها الطويلة وبدأت تضرب بكلتي يديها صدري..

-قـم يا أبي واحتضن ابنتك وقـل لها أن روحها عذراء، قم يا أبي وامسح وجهها وأشعرها بالحنان والأمان، قم يا أبي وأرجعها إلينا، قم يا أبي قم..

دمعتـان رحيمتـان خرجتا من عينيّ رغـم فقداني لمقر الدمـع، وددت التحـدث، وددت البـكاء، ولكـن كل حديثـي وبكائي كانا أنينًـا فقط! تعبت رولا من البوح، عادت إلى غاردينيا وحملتها وأتت بها إلي. رأيتها ملاكًا، رأيتهـا قطعـةً مـن قلبـي، رأيتها مغسـولةً بالـدم، ممزقةً بالأظافـر، رأيتهـا لا تحـرّك شـفتيها وعيونهـا مغمضة، شـعرها مجعّد وملامحها ساكنة ورئتاها لا تكبران ولا تصغـران. اسـتغربت كيف تركتني حبيبتـي الصغيرة، كيـف فتحت الباب للموت، كيف رحلت، كيف تموت وأنا لازلت أتنفس!!

وضعتهـا رولا بجانبـي واسـتلقت على الجانـب الآخر. رغبـت بضمهمـا بقـوة، رغبـت بمسـح دموع رولا ومسـح جبيـن غاردينيا، رغبـت بتقبيل غاردينيـا، رغبت ورغبت وهـذا العجز اللعين لم يمت، لـم يتركني، لم يرحمني، لم يشـفق علي! وسـط كل هذا الألم والحزن والنحيب، وإذا بالجـار يعود وبيـده اليمنى بندقية وباليسـرى فأس، يرجف كجروٍ خرج من ماءٍ بارد، ضغط على زناد الغضب

بصراخه..

-هيـاااا يا رولا ، لندفنها تحت السـرير و إلا قتلتكما هنا.

لم تدرك رولا ما يعنيه الجار من كثرة أصوات غاردينيا المخزنة فـي أذنها وخيالها. أطلق الجار رصاصةً طائشـة فـي السـقف فـدارت في الغرفـة حتى اختفـت، أدركت رولا أنها يجب أن تفعل ذلك وتضع فكرة الانتقام جانبًا، بعـد أن خبّـأت غضبها الشـديد في صدرهـا ليخرج فيما بعد. قامت وأخفضت رأسـها وأسكتت نحيبها، مسحت دموعهـا بكمهـا، وأطلقـت زفيـرا مـن فمهـا، سـحبت السـرير من تحتي مع الجار وأخذت الفأس من يده وبدأت تحفر ودمعها يسـقط ببطء على الأرض، وغضبها يحاول بشـتى الطـرق الإفلات منها، وأنا لازلت أحاول أن أشـعر بغاردينيا بحواسـي، أحـاول أن أفلت مـن العجز لأضمها لآخـر مـرة قبـل أن تذهب، أحـاول أن أكون أبًـا صالحًا لجبينهـا قبل دفنها بمـا أنني لم أكن أبًا جيّـدًا، بما أني المسبب لعذابها وحتى لموتها، بما أنني لست شيئًا، وبما أنهـا سـتكون تحت سـريري، أريد أن أحبهـا وأعبر عن حبي لها بكل حواسـي، أريد بكل ما بي من رغبة وحب أن أطلب ذلك من اللّه، يا اللّه، يا اللّه، يا اللّه، ضع فيها

مشاعري نورًا مشرقًا ، لم أعبر لها عن حبي، لم أغلب قوة العجـز، أخذوها مني دونما مقاومة، دفنوها دونما دمع، طمروها دونما صراخي! أعاد الجار السرير إلى مكانه، وعادت رولا لغرفتها تخطّط لضرب عنق العقرب، وعدت أنا إلى سـكوني وعجـزي، وعاد الجار إلـى بيته وكأن شيئًا لم يكن، وعادت الشمس للطلوع بعد رحيل القمر، وعاد الباب ليُطرق فجأةً وينادي مجزرةً أخرى.

صبـاحٌ آخـر يأتي رغمًا عنـا ، يأتي بلقـاءٍ جديد. الباب يـدق مجـددًا ، وضعـت رولا السـكين خلفهـا ظنًـا منها أن الجـار هـو الآتي. فتحـت الباب بهـدوء وأطلقت صوت الدهشة عاليًا.

-حبيبتي، اشتقت لك...

سـمعتها وغلبتني الدهشـة أيضًا. من هي هذه الضيفة غير ابنتي ياسـمين؟ دخلـت غرفتي واغرورقـت عيناها، أسرعت وحضنتني بقوة..

-أبي، أنا آسفة...

تحركـت بداخلـي خلجـة السـعادة إلا أن مـوت ابنتي الغاليـة غارديـنيا قتل نـور تلك الخلجة. لا تكبر الخلجات بداخلـي إلا خلجـات الحـزن والألم والعجز، فيـا للواقع،

كم هو قبيحٌ على الضعفاء والفقراء والأبرياء، ويا للحزن كم هو صديقٌ وفيٌ لنا! ثم من لنا ضدّ الوقت غير البؤس والفقر، ولأكن أكثر جديةً، وليكن البؤس هو أوكسجيننا الحقيقي في اللاحياة، والوجدان طريقنا الطويل الشاق. كيف سأبتسم وأنا أرى ضعفي ينهشني وينهش بناتي؟ كيف سأبتسم والأبرياء رفعوا القماش الأبيض منذ ولادتهم و لازالوا ينشدون نشيد المعاناة على ركامهم الداخلي؟ كيف سأبتسم وأنا أرى ركامي الداخلي وركامي في الخارج والواقع وبدفي وجود بناتي وفي ذاتهن وداخلهن؟ كيف سأبتسم وأنا لم أبتسم في حياتي إلا وقتلت ابتسامات الذين كانوا أضعف مني؟ فلتمُت الابتسامة بسلام، فليبتسم اللّه لربما يرحمني..

ابتعدت عني وجلست وأطلقت زفيرها الطويل وعيوني تطلق نور الحب لها. عدلت جلستها وقالت وعيونها توقفت في مكانٍ محدد..

-ستسألني يا أبي لمَ رحلت قبل أي سؤالٍ آخر، سأجيبك.. ونظرت إليّ بلمعان الدمع..

-رحلت باحثةً عن الحياة، عن السعادة، عن السلام، عن الحب، عن الاستقرار، عن النقاء، ولكن...

أنزلت عينيها الكبيرتين بعد أن مسحتهما بمنديلها الوردي

-ولكنني عدت إليكم الآن، فأنت لا تعلم يا أبي كم أن البشر في الخارج أشرار ومزيفون للغاية. يظن الأغنياء أن الفقراء مجرد دمى، هم يجرحونهم بشتى الطرق، إنهم أشرار يا أبي! يا ليتنا لم نكن من هذه الثلة في الماضي، لم أكن أشعر بهم في الماضي، كنت شريرة، ولكنني الآن إنسانة! إنهم جائعون، يريدون أن يأكلوا كل شيء، كلهم يرغبون بحكم العالم، كلهم يرغبون بأن يكونوا أقوياء ولكن على ظهور غيرهم، على قلوب غيرهم! إنهم لا يبالون بشيء، ولا يشعرون بالمشاعر والأحاسيس الإنسانية. كم تفاجأت حين رأيت أبًا يأكل حياة ابنه، وحين رأيت أمًا تدمر مشاعر ابنتها، وحين رأيت ثلةً تقطع أصابع الحب، وحين رأيت مجموعات مسلحة بالأوهام والغرور تدمر قلاع السلام، وحين رأيت طفلًا يبكي ويبكي ويبخر دمعه باحثًا عن الموت لأنه وحيد، مرميٌ في شارع الضياع. حين لاحظت نصر الظلام، وحين لاحظت تشرد الاتجاهات، فبوصلة الإنسان قد اختلت، وحين لاحظت عدم إحساس العامة بالموسيقى، وحين لاحظت تراكم النفايات في العقول، وحين سمعت أصوات منشدي الموت على عنق الحياة. فيا أبي القرن انمسخ!

رفعت عينيها عاليًا وقالت:

-في البداية قابلت شخصًا عرض عليّ المساعدة دون مقابل لكنه تحرش بي فهربت منه لمكانٍ آخر، ولكن كل الأماكن خالية من الإنسانية والوجدان. نمت معظم أيام غيابي عنكم في الشوارع، نمت وأنا نصف مستيقظة، فكل ليلة تمرّ يجب أن أحاول الفرار من البعض لشارعٍ آخر، وقبل مدة قريبة، وبالصدفة، بينما كنت أمشي باحثةً عن الماء والخبز، وقع شابٌ لطيف على الأرض فساعدته.

فاجأتني بابتسامةٍ بريئة، وأكملت تقول:

-لا تعلم يا أبي أنني بهذه المساعدة قد سعدت أقصى درجات السعادة، فالضعيف أو الفقير أو الإنساني سعادته تكمن في مساعدة غيره. بعد أن ساعدته تعارفنا وحدثته عن قصتنا، فمد لي يد الصداقة وبعدها عبر لي عن حبه، وهو الآن ينتظرنا جميعًا لنخرج من هنا.

حرّكت عينيها في أرجاء المكان وقالت:

-أين غاردينيا ؟؟؟

بسؤالها هذا أعادتني مجددًا إلى أرض المعركة لأحارب نفسي، وأحارب الفراغ، وأستسلم للألم وللحزن.

رفعت عينيَّ نحو السقف خجلًا وضعفًا وألمًا. فكرّرت سؤالها، انتظرت الجواب بغرابة وبقلق، انتظرت كثيرًا حتى رماها القلق في بئر الغضب..

-أسألكم أين غاردينيا؟؟!

ردت رولا وهي تلملم نفسها المبعثرة وتنفض غبار الضياع على قلبها..

-شعر بها اللّٰه فأخذها ليضعها في ديوانه قصيدةً، ألم تسمعي البارحة إيقاع الفلك؟ ألم تجدي غيمةً تمطر على مقام الصبا؟

استغربت ياسمين مما سمعته، فعادت تكرر سؤالها بشكل عنيف، هنا جاءها الرد الأعنف. فتح الباب بشكلٍ همجي، إنه الجار! دخل والبندقية في يده مجددًا، تفحص المكان بلحظة فوجد ياسمين جالسة. أطلق بلمح البصر رصاصة ليخترق قلب الأمل، ليكسر زجاج اللقاء، ليمزق شرايين الحياة، ليقطع أوتار موسيقى الحب، ليهز شجرة اللّٰه المثمرة، ليثل قلاع الوقت، ليفلك الزمن نحو اللازمن، ليهدم الوجود، لنختنق بالرماد. رصاصة تبكي وهي تخطو خطواتها نحو قلب ياسمين، وصلت وخرجت من الظهر ميتةً من الضمير. وقعت ياسمين على الأرض تقاوم وتصارع الموت إلا أن الموت أقوى من الإنسان في

الوجـود. نظـرت رولا بعيـون الدهشـة لأختهـا وهـي تلفظ أنفاسـها الأخيرة وترحل، فقفزت غضبًا بقلبها وجسدها نحـو الجـار، ورمته على الأرض من قـوة أعصابها. طارت البندقيـة من يـده، وطارت قبعتـه الغريبـة. أخرجت رولا السـكين من خلـف ظهرها وطعنت الجار دون أن تسـأل اللّه، دون أن تسأل الوقت، دونما تفكير، دونما بكاء، دونما حذر، دونما قلق، دونما خوف، فقط برغبةٍ شديدة وغضـبٍ بركانـي، فقـط باللاوعي! طعنته فـي البطن، وأخرجـت السـكين لتلوح بـه للزمـن، إلا أنها لم تُشـبع غضبهـا فطعنته فـي نفس المكان مجـددًا، ثم أخرجته لتطعن فـي مكانٍ آخر. لوح السـكين للنهاية فالمقصد هـو قلب الجار الأسـود. لقط نفسـه ثم عـاد للعمل، فنزل بسـرعة البرق ومـزق الجلد واللحـم واخترقه حتى ضرب رأسـه بعظـم القفص الصـدري، وتوقف، كدت أبتسـم إلا أن السـكين لـم يخترق القلـب إنمـا كان بعيدًا عنه لسـنتيمترات. فـي هـذه اللحظـات، كان الأحمـر اللون الأكثر وجودًا أمام الرؤية، والجار يتقيأ الدم بوجه رولا. قزحية رولا توسعت، أعصابها تلفت وجسمها ارتجف. وأنا لازلـت الأكثر قراءةً للمجازر الحبريـة على أوراق القلب. ياسـمين قد وصلت إلى نقيض الوجود، توقف الزمن هنا

للحظـات معدودة ولكـن الجار صار عنيـدًا أمام الموت. فجأةً، لكم بقبضته حنك رولا فوقعت رولا من فوقه على الأرض ماسـكةً بوجهها وهـي تتألم أنينًـا. زحف وزحف بكل ما تبقى له من قوة إلى أن وصل إلى البندقية، أفلك جسده باتجاه رولا، وأطلق رصاصة النهاية نحو المشهد، اخترقت حاجز الصمت. رأيت فتحةً خلف رأس رولا، رأيت فجأةً السقوط الأخير للقلب، رأيت وسمعت ارتطام رأسها علـى الأرض، فيا للموت كم يحـب الأبرياء! رأيت الجار يصوب البندقية نحوي بعد أن قطع كل شـرايين الحياة، إلا أن الموت أخذه قبل أن يضغط على زناد البرزخ.

لحظـةٌ دفعتنـي بـكل قوتها لأخـرج من متاهـة العجز بصراخي

-لاااااااااااااااا.....

أنهيـت الصـراخ وعـدت إلى الوعـي للحظـةٍ ثقيلة ومن ثم تشـوش وعيي ببـطء فأغمضت عينـيّ وفتحتهما لأرى الواقـع كمـا هـو. دمٌ وظـلام وبـؤس وعجـز، وإذا باللّه يتدخـل، فجأة، وكأنه غيّر مسـار الزمـكان وغيّر نوع المشـاهد أو كأنه أحسّ بي ورحمني. لاحظت أنني قادرٌ علـى التحـرك، حركـت يـدي فتحركـت! إلا أننـي لم أصدق نفسـي، حركت ساقي فتحركت! اندهشت من

قصيدة اللّٰه الرائعة، ولكن القصيدة لم تنتهِ بعد.. بدأت المفاجآت تمرّ في أنبوب الوعي واحدةً تلو الأخرى، رأيت الرؤية تتغير ألوانها وأشكالها ببطء، رأيت الدم يجف ثم يتلاشى في دهاليز البلاط، ثم رأيت الجار يتحول إلى عظام ثم إلى ركام ثم تأخذه الريح من النافذة. رأيت فتحة رأس رولا تضيق وتضيق إلى أن اختفت تمامًا، فقامت ونظرت باتجاهي وابتسمت. ومن ثم لاحظت قلب ياسمين يدق مجددًا، ففاجأتني وقامت لأندهش أكثر! وأنا لازلت غارقًا في الدهشة وإذا بيدٍ تلمس يدّي، نظرت نحوها فوجدت وجه غاردينيا وهي ترتفع ببطء شديد بجانب السرير إلى أن ظهرت بكامل أوراقها و أغصانها، ابتسمت لي ابتسامةً بريئة، وكأنها تراني للمرة الأولى. في هذه اللحظة الأخيرة من الدهشة لم أستطع مقاومة الصمت..

-أين أنا؟

ردت غاردينا وهي تمسك يديّ بقوة:

-أنت معنا يا أبي.

لم أصدقني ولم أصدق ما يحيط بي من الدهشة، فقمت مسرعًا أحتضن غاردينيا وأخمد نار الشوق في قلبي. بقيت أشم عبيرها دون أن أهتم بأي شيء أخر، وقبل

أن أشـكر اللّٰه، أو لربمـا هـي صفة أزلية في الإنسـان، فنحـن نشـكر بعد أن نشـبع تمامًا. فتحت عينـيّ بعد أن مضت الدقائق السعيدة سريعةً في فوهة الزمن التعيس، وإذا المـكان هـو حديقة منزلنا القديم! هنا بدأت أشـك في الوجود وفي الرحمة وفي اللاوعي والخيال، هنا بدأت أحاول أن أفلت مني، من الجسـد والمكان الملتصق بي ومـن الرؤيـة الكاذبـة البعيدة عـن الواقـع التعيس، هنا بدأت أريد واقعًا أسـودًا أقاومه علـى أن أعيش في الوهم والخديعـة. هنا بدأت أدرك أني أتخيـل أو أحلم أني أحلم. جميـلٌ هـو الحلـم ولكـن دون أن يأخذ الرؤيـة والإدراك نحـو الخدائـع والأوهـام. أدركت بكامـل الإدراك أنني أحلم، وهذا ما أزعج اللاوعي ليأخذ بناتي نحو العدم من جديـد. كانت غاردينيا لا تزال قريبةً جدًا مني، لاحظت أن العـدم يأخذهـا ببـطء، لاحظتهـا تتلاشـى فحضنتها مسرعًا، وقبلتها قبلات الأب الحنون لابنته، قبلات الغيوم للتراب، إلا أنها تلاشـت تمامًا قبل أن أشـبع، آخر قطعة منهـا كانت الوجه، ابتسـمت لي ولقلبـي ورحلت. نظرت إلـى ياسـمين ورولا، كانتـا تتلاشـيان برائحـةٍ عطرة، بابتسـامات بريئـة، بعيـون ضاحكة، تلاشـت رولا، إلا أن ياسمين تلاشـى نصفها وبقي نصفها، فأسرعت تقول

بوجهها البشوش وبصوتها الرقيق..

-أبـي، أحبـك كثيـراً، لقلبـك الحنـون، وأريدك أن تعـرف أننـي لسـت عاهرة ابـدًا، أنا لـم أجرح أحـدًا ولم أتسـلط أبدًا، لم أسـرق ابتسـامة فقيرٍ ولم أخـدع بريئًا، لم أذبح عصفورًا ولم أكسّر قلبًا أو رغيفًا. كنت وبكل لحظـات حياتـي وحتـى قبـل رحيلي عـذراء بروحـي، أنا عذراء يا أبي.

قالت ما في قلبها ورحلت بهدوء إلى الهدوء. لاحظت بعد أن بقيت وحيدًا أن المكان يهتز وكأن ذاك الزلزال عاد ليأخذنـي مجددًا إلى العجز. اهتز المكان حتى انشّـقت الأرض تحت قدميّ. سقطت وأنا أصرخ رغم إدراكي بأنني فـي الحلـم، ظللت أسـقط حتى وصلت إلى مـكانٍ آخر. سـقوطي كان على أشواكٍ حادة وطويلة، لم أتألم حتى، لم أشـعر بأي شيء ولا حتى بالأرض تحتي، عرفت حينها بأنني قد عدت إلى الواقع والسرير والعجز. أغمضت عينيّ دون أن أدرك ذلـك، ثـم فتحتهما بحركـةٍ خفيفة، رأيت الضوء يتسـلل نحو غرفتي من النافـذة أدركت أن الزمن قد أمسـك بـي في الصبـاح. روائح تدخل بعنـف إلى غدد الشـم، بعضها غريبة لم أشمها في كل حياتي، وبعضها نتنـة ومزعجة، وبعضها يثقل الدماغ على جمجمتي. رأيت

الجثث لازالت في أماكنها السابقة، جثة الجار أمام الباب، جثة رولا بجانبه، ولازالت الفتحة ظاهرةً للرؤية، جثة ياسمين بجانب سريري. الدم هو الأكثر تسلطًا على الألوان، ووجوه الجثث صفراء كالليمون. غاردينيا لازالت تتحلل و تؤكل في قبرها، تحت سريري، وأنا لازلت عاجزًا ومقيدًا بهذا السرير الصدئ، لازلت جائعًا وعطشانًا بشكلٍ لا يوصف، حتى بدأت الخلايا تموت في داخلي من شدة الجوع والعطش. ازداد الأمر سوءًا حين امتزجت رائحة مخلفاتي بروائح الجثث. غرفةٌ وحالةٌ سيئة لا يمكن لأحدٍ البقاء فيها برغبته، ولكن بما أنني غير قادرٍ على إشباع الرغبة والنهوض والرحيل، فسأنتظر الموت بكامل الصبر. ولا حتى الفراغ يمكنه أن يزعج صبري وأنا أنتظر هذا الموت الجميل، فالموت جميلٌ إن كانت الحياة سيئةً بنا أو دوننا، وأنا الآن في قمة السعادة من داخلي لأنني أدرك أن لا أحد يمكنه قطع طريقي نحو الموت، ولا حتى الأصوات ستزعجني ولا رؤية وجه أحد. بما أن بناتي الآن سعيدات وبعيدات عن الألم والواقع الحاد والجار الشيطان، فأنا الآن سعيدٌ جدًا...

* * *

الفهرس

عطسة قانونية ٥

البزق..... ١٧

نوبة وجودية ٢١

لا جديد ٢٧

قبل الموت بقليل..... ٣٣

نبوءة في التسول ٣٧

على حافة البحر ٨١

الطارق ٨٥

صباح الدمع ٩٣

العاجز والعذارى ٩٧